نجوى بركات

يا سلام

أبو عبدو البغل
https://facebook.com/groups/abuab/

رواية

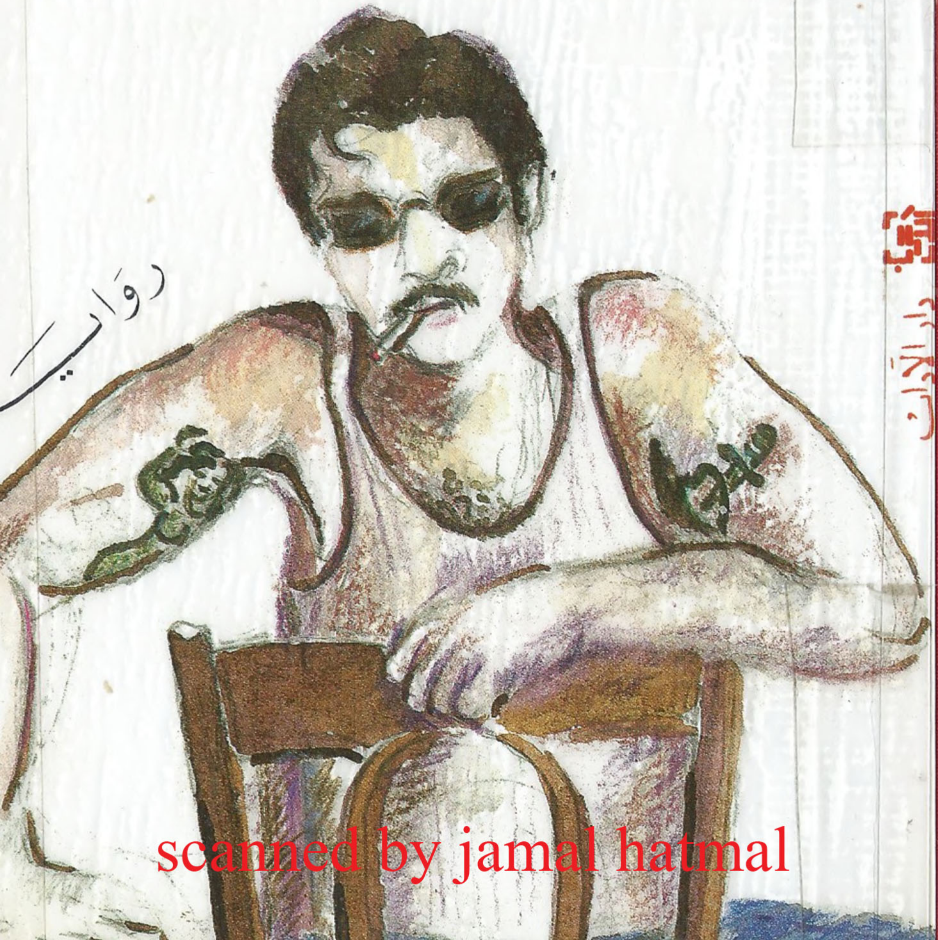

scanned by jamal hatmal

يا سلام

نجوى بركات

يا سلام

رواية

دار الآداب - بيروت

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى
١٩٩٩

ـ ١ ـ

قالت سحابة :

أوليست هي المدينة التي ما عادت تشبه نفسها؟

ردّت أخرى :

بل لا تشبه مدنًا سواها.

وسألت ثالثة :

أصحيح ما يُروى عن أهلها أنهم فقدوا عادة البكاء؟

فتدافعت سحبٌ كثيرة وتحاشرت

تنظر مدهوشةً إلى أسفل ...

ـ ٢ ـ

ساعات الفجر الأولى،

كأنما الفجر ساعات أو أكثر من لحظات حتى...

فتح لقمان عينيه على المنبّه. لا يحتاجه لقمان. في كل مرة، يستيقظ قبله بثوان. ضدّه. نكاية. وفي الساعة التي يريد. كي يريه فقط أنه، هو لقمان، لا يحتاجه.

منذ تعلّم صنع الألغام، صارت له ساعة داخلية حادة النصل تفصل لحم نومه عن عظام يقظته بالقدر الذي يريد. بها يتباهى أمام الرفاق، فيراهنونه ويصيب. دائماً يصيب. في الوقت والمواقع والأهداف.

والحق يُقال، لو كان لقمان من بلاد «تحترم نفسها»، لأصبح اليوم ربما ـ حتمًا ـ برتبة جنرال. لو استمرّت الحرب التي غذّته على اشتعالها، لما كبت حياتُه وتطايرت رماداً مُذَرّىً في الهواء.

ذات يوم، هكذا، فجأةً، قطعوا حربه كما لو كانت حبلاً، فهوت حياة لقمان مقلوبةً على قفاها لا من يدها ولا من رجلها... كوما... شلل في الدماغ ... أجل، حياة لقمان مصابة بشيء من هذا أو ذاك...

تحسّس لقمان عضوه. هيّا، انهض يا زميل، أعدك بيوم ليس كالأيام. مرّر إصبعًا تحته ولكزه، فرفع «الزميل» رأسه متململاً، ثم عاد يرتمي على بطنه وينام. لا رغبة له اليوم. لا بأس. لا رغبة للقمان أيضًا. ربما حمله مساءً إلى مارينا. ألم تقل له وتلحّ عشرات المرّات؟

الله على مارينا! حين رآها للمرة الأولى، صُعق لبياضها. على هذا الطول ويمثل هذا البياض في هذا الصيف الملبّد، القائظ، اللزج، المغبر، المنتن، المزدحم بزعيق الأبواق والروائح والأوساخ؟! مارينا رائعة في الصيف. وفي الشتاء؟ لا يدري. باردة ومنعشة كزجاجة كازوز. كنكهة سكّرية بروح النعناع.

حين رآها للمرة الأولى، أنعشته. كمن يُدخل رأسَه في ثلاجة ويطيل المكوث. كما لو أن آلاف المراوح راحت تغدق عليه هواءها الخريفي العليل... كانت عارية الساقين. ترقص كمن يتمشّى في نفق سرّي محفور داخل حرّ الصيف الفظيع. على مهل. خارج الوقت ولا تعرق. ويبقى جلدُها ناشفًا يقع عليه القيظ فيرسله بعيدًا كما لو كان نوراً وهو المرآة.

دعاها إلى طاولته وفتح على شرفها زجاجةً كاملة. وما ابتسمت وما اندهشت وما أتت بردّة فعل. ناصعة وباردة ومحايدة. كالثلج.

قال له النادل بلكنته المصرية : كافيار روسي من الصنف الممتاز! وصلتْ مع دفعة الشهر الفائت. سبعة عشر عامًا يا سي لقمان! والله تستأهل ليلة بحالها، ما رأيك؟ ثم التفت إليها وقال وهو يطوي ورقة

الخمسين دولارًا ويضعها في جيبه الداخلي الصغير : مارينا، يو كان ستاي ويز مستر لقمان أول زو نايت...

لم يكن في نية لقمان أن يستبقيها الليل بطوله، خاصة حين تذكّر أن ورقة الخمسين دولارًا هي آخر ما تبقّى في جيبه. لكن، لكنة النادل الذي عرف لقمان أيام كانت الدولارات تلعب في يديه، المظاهر التي ينبغي الحفاظ عليها، واسمها الذي ذكّره بعجوز قريته التي كانت تلاحقه صبيًا بدلو المياه كلما اقترب من قطتها الجرباء، كل هذا دفعه إلى الانصياع وقبول صيغة «أول ذو نايت»...

حين تمدّد لقمان فوق مارينا، غمره حشيشٌ أخضر نديّ فيما كانت شمسُه تسقط في مياهها العذبة الرقراقة داخل أوعيته المحتقنة بالدماء.

وحين زحف النعاس إلى عينيه مسالمًا على غير عادته، ردّد وهو يغفو متهاديًا : ها إني قد نلتُ من «شُيوعْيا» يا رفاق!

هكذا كانوا يسمّون روسيا في قريته، شُيوعْيا. وهكذا صار لقمان يسمّي مارينا الروسية الناصعة البياض ...

■■■ ■■■

مبلّلاً بعرقه، مقلوب الأعضاء، نهض لقمان مرغماً. ينبغي له أن ينهض وإلا فاته المهرجان. لا يريد إضاعة أي تفصيل مهما كان صغيرًا. سيكون في الصفوف الأمامية، هكذا لا تعيق عليه الرؤية أية حواجز.

وضع الركوة على النار. أشعل سيجارةً أتى على بعضها الليل الفائت، ثم اتجه إلى بيت الخلاء. رفع غطاء المقعد، أنزل سرواله القصير، ثم جلس. ما الذي يحوّل بياض المغسلة والمغطس إلى هذا اللون الزنجاري الحقير، طالما المياه مقطوعة منذ سنوات.

عاد السلام ولم تعد المياه، ردّد لقمان لنفسه فيما هو يحسب بدقة ما ستخرجه أحشاؤه، ما يحتاجه ذلك من ماء كي يصرفه، وما تبقّى في الأوعية البلاستيكية منه. سيطلب من الناطور أن يملأ المغطس من مياه القساطل المبقورة أسفل الدرج. لا. سيقوم بذلك بنفسه عند عودته؛ فالناطور لم يعد ناطوراً هذه الأيام ولقمان لم يعد لقمان.

مال بجسمه قليلاً رافعًا مؤخّرته كي يرمي عقب السيجارة في حفرة المقعد. وما إن عاد يستريح إلى وضعيته السابقة حتى لاحت له عيناه تلتمعان بسواد حادّ.

كان يقف في النافذة الصغيرة، جامدًا، متحفّزًا من دون حياء. يحدّق إلى لقمان ولا يرفّ له جفن. كأنه غير خائف. كأنه لا يخاف.

فكّر لقمان: لو كانت بندقيته الأوتوماتيك بمتناول يده الآن،

لرفعها ببطء، وضع عينَه في نظّارتها، صوّب ما بين الحاجبين تمامًا، ضغط على الزناد على مهل، بتؤدة، ولكان أصاب!

لأصاب واستمتع بمنظر جمجمة اللئيم تنفجر، ودماغه ينفلش ودمائه تنتشر كالرذاذ في جميع الاتجاهات. لقام إليه من ثمة، أمسكه ثم رماه في الأرض وقام فوق جثته يركلها ويرفسها ويدوسها بقدميه حتى تخرج كل أحشائه من البطن والفم والأذنين.

لو... غير أن بندقية لقمان الأوتوماتيك ليست في متناول يده. وعينا اللئيم ما زالتا ترصدانه بسوادهما الحاد. إلامَ ينظر، وما الذي يشعره بتلك الفوقية؟ عريه! أجل. عري لقمان. عانته المكشوفة وسرواله القصير المتكوّم عند قدميه...

تُعرّي الآدمي، كان يقول له «الأبرص»، ترجعه إلى أصله، إلى الكهوف، ثم تدخله الحمّام وتفعل به ما تشاء...

ولم يكن «الأبرص» أبرص، بل لم يكن أشقر. كان قصير القامة له وجه صبي لن يبلغ أبدًا، كهؤلاء الأولاد الذين يجيئون متأخّرين جداً والذين، لإلحاح أهاليهم عليهم وبعد انتهاء الموسم بكثير، يجيئون. لذلك ربما أحبه لقمان، لذلك ربما تبنّاه.

أنا يمين الربّ، كان يقول، وغضب الربّ عظيم. وحين كان لقمان يسأله : ولكن، لمَ المياه يا أبرص، ولم تجبرهم على الاستحمام قبلاً؟ ضاحكاً كان يجيب : أعمّدهم كَي يبرأوا من آثامهم، فيلاقوا ربّهم مستسمحين نادمين...

هو الربّ من يعطي ومن يأخذ، وهو الذي استدعى الأبرص ذات مساء.

مات الأبرص. ولم تصبه قذيفة، ولم يتعرّض لاغتيال، وما خطفه حاجـز طيّار أو كـمن له أعداء. وافتـه المنيّة في بيـته، ليـلاً، بعد أن أعدّت له أمّه لوريس العشاء.

كان قـد عاد لزيارتهـا بعد غـياب طويل. حـمل إليهـا أرتالاً من الهـدايا والأكيـاس لأنه كـان يعبـدها وكان ولـدها الوحيـد. لم تك لوريس على علم بطبيعة نشاط الأبرص. يروي أنه يساعد المحتاجين والفقراء، ويوزّع عليهم الإعاشات والمعونات، فتصدّق هي وتدعو له، وتسهر الليل بطولـه تخاطب صورة السيدة العـذراء. أمّي قدّيسة يا لقمان، لو عرفت لماتت قهرًا. غير أن الأبرص هو من مات...

قالت لنا لوريس، نحن رفاقه : انطفأ في فراشه ليلاً. أزمة قلبية، أغلب الظن. ولم تنتحب. تحدّثت كطبيب يلقي بتشخيصه إلى غرباء. كان رأسهـا مكشوفًا. وشعـرها كلّه مصطبغ بالبياض كـأنّها شابت في أيّام . ولم تبكِ.

نحن أيضًـا، رفاقـه الذين لم نعلم بخبـر موته إلاّ بعـد أيّام حين جئنا إلى أمّه لوريس نستخبرها عنه بعد أن افتقدناه، لم نبكِه.

ربما فـهـمنا من زيارتنا شـيـئا إضـافـيّاً عنه، حين تذكّـرنا أن «الأبرص» لم يكُ سوى لـقب وأنه إنما كان يحمل اسـم ذلك القدّيس الذي رأينا صورته تتصدّر ردهة الاستقبال.

قدّيس أشـبه بمحـارب شرس منه بقـدّيس، يشهـر السيف بـيد

ويمسك بفروة رأس رجل مـرتم على قدمـيه، باليد الأخـرى. قدّيس مقفل الملامح، ينتـصب غاضباً، كإعصار وسط حـقلٍ مزروعٍ بجثث القتلى والحرائق والدمار.

صورة للقدّيس «الياس»، شفيع رفيقنا الأبرص الذي مات...

■■■ ■■■

حين انتهى لقمان من إفراغ ما في أحشائه، كان اللئيم قد اختفى من طاقة الحمّام. هل رجع من حيث جاء، أم هل استغل سهوه لثوانٍ، فقفز إلى الداخل ليقبع في زاويةٍ ما؟

عاد لقمان إلى الغرفة. أجال نظرةً سريعة فيها. يستحيل أن يجده وسط هذه الفوضى.

انتقل إلى المطبخ وجعل ينظر حواليه فيما هو يضع البنّ والسكّر في مياه الركوة. أكوام الأواني الوسخة وبقايا الأطعمة وأعقاب السكائر وبقع السمن المتجمّد. لو استقرّ اللئيم هنا لشعر أنه ينزل في فندق من فئة خمسة نجوم.

لا. ينبغي له أن يقوم بزيارة سلام على وجه السرعة. ما عاد البيت يحتمل مزيدًا من الإهمال. سيمرّ بها في عملها، يختلق لها أعذارًا من نوع المرض أو البحث عن عمل أو حيائه من إفلاسه وعدم قدرته على دعوتها إلى غداء أو عشاء.

أطفأ لقمان السيجارة في ثفل القهوة، ثم عاد يمرح الصابون على ذقنه كي لا يجفّ. علّق المرآة الصغيرة بمقبض النافذة بعد أن فتح إحدى درفتيها وراح يحلق.

ليس النور هنا أفضل حالاً منه في غرفة الحمّام. قطعوا عنه الكهرباء لأنه لم يدفع فواتير الأشهر الستة الماضية. كيف يدفع والكهرباء أصبحت في عصر السلام أكثر إحراقًا من النار. لا بأس. خمسة عشر عامًا والبلد غارق في الظلمة. فليقطعوا عنه الكهرباء. سيريهم أن له عيني خلد، وأنه اعتاد الرؤية في السواد الحالك

بأفضل ممّا يرى في وضح النهار.

مرّت الشفرة حادّةً على عنق لقمان، فارتسم خيط رفيع أدكن ما لبث أن رشح بشيء من الدماء. نظر حوله، فلم يجد ما يستنجد به.

اتجه إلى السرير مستخدمًا طرف الشرشف المزخرف الذي تؤدّي ألوانه بمهارة لعبة التمويه. عنّ له أن يُشعل سيجارة، غير أنه تذكّر أن علبته فرغت منذ قليل. دلق بعضًا من ماء عطريّ في قعر راحة يده، ثم طرشه على وجهه فانفتحت رئتاه. هدايا مارينا دائمًا منعشة كبياضها الثلجي الفارع الطول.

رفع بذلته الكحلية التي يحتفظ بها لمثل هذه المناسبات عن المشجب، ثم مدّدها برفق على السرير. هي الأخرى أيضًا هدية. من سلام. تشبهها بلونها الصارم المدرسي. كحلية والقميص بيضاء. هذا ما تجيده سلام. وهكذا تحلم أن تراه في العرس. عرسهما.

■■■ ■■■

نزل لقمان الدرج حليقًا نشيطًا. ولولا الحياء، لصفّر أغنية أو لحنًا ما.

عندما وصل إلى المدخل، طالعت خياشيمَه رائحةٌ تخالطت مصادرُها فاختلطت عليه. وقف ينظر ناحية باب الناطور. ماذا لو اتجه إليه يقرعه قرعًا عنيفًا بقدميه وهو يصرخ : افتح يا كلب، افتح وإلا فتحت عليك النار!

ابتسم لقمان بشيء من الأسى. هذا زمن ولّى ومضى، زمن كانت تهتز فيه الأرض وترتجف لخطاه. لم يعد ميزان القوى لمصلحته. فالناطور الغريب اللكنة مدعوم بمن هو أقوى من لقمان وأبي لقمان. يخشاه سكّان البناية بأجمعهم، هو الذي لم يمارس أبدًا المهام التي تقع على عاتق الناطور عادة، ويطلق فوق هذا زعيق ذرّيته على الشقق في الليل والنهار.

فتح باب البناية فوثب جرذٌ كبير أمامه وكاد يهوي إلى الوراء. في طاقة الحمّام وفي مدخل البناية أيها اللئيم، في الداخل وفي الخارج أيضًا؟!

صرخ لقمان بذلك، ثم خرج مسرعًا قبل أن يوقظ صياحُه الناطور فيعطيه حجّة أن يلقي عليه كلامًا غريب اللكنة، هو الذي لا يمنّ عليه حتى بتحيّة الصباح...

ـ ٣ ـ

هذا الصباح أيضًا، لن ينهض النور. فالغيوم لم تزل كثيرة تراوح مكانها حائرة، لا تعبر ولا تقنع بضرورة إنزال حمولتها من الأمطار.

سار لقمان في الشارع وهو يفكّر : هذا طقسٌ للعاصفة، مصفرٌّ ولا هواء فيه. وقت للعاصفة حتمًا، أو ربما لزلزال. ستائر الحوانيت مقفلة. من أين له أن يحصل على علبة دخان الآن؟ حينما يصل إلى المهرجان، إذا لم يجد حانوتًا مفتوحًا، ربما طلب إلى أحدهم أن يعطيه سيجارة...

هوذا نصف الآدمي الحقير يسير كعادته بين السيارات. يسير؟ أجل، على يديه. نصف آدمي تخفّف من جذعه السفلي ينتقل بسرعة أرنب أو سلحفاة. كلما خرج لقمان، رآه. وكلّما رآه، تملّكته رغبة هائلة في رفسه. ألا ينام؟

لو كانت سيارته «الرلج» لم تزل في حوزته، لتباطأ قليلا كي يوهمه بأنه سيمنّ عليه بشيء من النقود، لوقف الشحّاذ ينتظره، ولأدار لقمان مقود سيّارته بسرعة فجائية، سار عليه واستمتع بصرير أطره الكاوتشوكية وهي تهرس العظام. لو...

رفع نصف الآدمي ــ المتسوّل ذراعه بعلبة دخان، فأنزل لقمان يده يتناولها ويدفع. يبتسم! لا بأس. يؤجّله لمرة قادمة. اليوم سيعفو عنه من أجل علبة الدخان، ومزاجه الجيّد، وخاصة بسبب المهرجان.

لكنه ذات فجر، سينهض من أجله خصيصًا. هذا قتيل برسم البيع. الأحرى أنه برسم المجّان. لنقل إنه نصف قتيل. أوليس نصف قتيل لا يطالب به أحد، أفضل من قتيل كامل؟

■■■ ■■■

وصل، فوجدهم قد سبقوه.

بحر هائـج من الناس من مخـتلف الأعمار والمشـارب والطوائف والألوان والانتمـاءات، متمـركزون في كل فسحـة فراغ. كالعناقـيد تتدلّى أطرافُهم من على الشرفات وسطوح البنايات وأعمدة الكهرباء والشاحنات...

تبًا لهم، متى استفاقوا؟ الأغلب أنهم باتوا ليلهم هنا كي يسبقوه، هو وأمثاله من النيام.

شقّ لقمان دربه بصـعوبة بين الأرتال البشرية المزدحمة مـتّجهاً إلى طرف الساحـة حيث نصب أحـدهم خيمـة وضع تحـتها بعض الكراسي الواطئة.

لاهثاً، قال لقمان : فنجان قهوة، لو سمحت.

قال البائع : أهلاً بك، بين صباح البارحة وفجر اليوم، بعتُ أكثر ممّا أبيع في أسبوع. لـم يبـقَ لديّ بنّ، ما رأيك بفنجان شاي؟

هزّ لقمان رأسه موافقًا.

تابع البائع يقـول : الناس ماتت من زهقها يا رجل. اشـتقنا إلى المهرجانات.

نظر لقمان إلى حيث تجمّع الناس وقـال : بالفعل، وأي مهرجان!

فيما سرحت عيناه إلى الطاولات المفروشة بمآكل الصباح تحيط بالمنصّة التي زُنّرت بحبل يمنع المتفرّجين من احتلال مركز الساحة.

هرج ومرج يليق بالمناسبة.

بائعو القهوة والعصير والمرطّبات يجولون بين الناس الذين أتوا أفرادًا وجماعات، وهم يقرقعون بفناجينهم أو يقرعون على زجاجاتهم الملوّنة بالمفاتيح المعدنية، داعين الحضور إلى التلذّذ والانتعاش...

كعك ، ذرة مشويّة، فول، سندويشات وحلويات...

أمهات افترشن الأرض وأخرجن أثداءهن يرضعن أطفالهن على مرأى من الجميع...

عَجَزَةٌ حُملوا من البيوت وأُجلسوا على مقاعد قماشية واطئة...

عساكر وقوى أمن تجمعّوا هنا وَهناك، يدخّنون ويرقبون بأطراف عيونهم الحشد، فيما هم يتحادثون بصوت خفيض...

مصوّرون وصحافيون وآلات تسجيل وعدسات تصوير وكاميرات...

فرق كشّافة، فرق دفاع مدني، فرق وفرق أخرى ويافطات رُفعت على الأعواد تحمل رسومًا أو كتابات : يعيش يعيش، يحيا يحيا، وأمثالها من الشعارات...

مجموعة من المراهقين حملوا طبلة ودفًا صغيرًا مبتكرين فرقةَ مُناصرَة وتحميس، كما في مباريات كرة القدم والأعراس...

فتيات ارتدين ثياب الأحد وتزيّنّ بأجمل الحلي والعقود، علّهنّ يلفتن النظر أو يصدن العريس المنتظَر منذ أمد بعيد...

ورجال! رجالٌ ولا كل الرجال. آباءٌ وأبناء، يلعبون النرد، يفتلون

شواربهم أو يشبعون رؤوسهم بحكاك يروي الغليل، فيما هم يحرسون حريمهم من النظرات والظنون...

سأل لقمان البائعَ فيما هو يذيب ملعقة سكّر إضافية في كوبه البلاستيكي : كيف عرفوا؟

فأجابه البائع : كيف عرفوا؟ من التلفزيونات والإذاعات! منذ أسبوع وهي تعلن عن الحدث ليل نهار.

قال لقمان : أجل، لكنها لم تحدّد ميعادًا؛ فقط المكان.

قال البائع : هكذا هم، يظنّون دومًا أنهم أكثر ذكاء من الشعب. غير أن الخبر تسرّب، لا تسألني كيف، لكنه تسرّب. بالطبع، لو أعلنوا عن الميعاد لرأيتَ البلاد كلّها تزحف و...

لم يُكمل البائع جملته حين لحظ حركةً في الصفوف الأمامية المتحلّقة حول المنصّة، فأرخى ما في يده وركض. تبعه لقمان.

وصل موكب.

كان مؤلّفًا من شاحنة وسيّارات أخرى ودراجات نارية أطلقت صفيرها بأعلى ما يكون، ثم توقّفت. ترجّل عدد من رجال الأمن وضربوا حول الساحة نطاقًا مشدّدًا ليحولوا بين الجمهور والمساحة القريبة من المنصة. نظر لقمان إليهم وابتسامة تعلو وجهه : يظنّون

أنفسهم في فيلم سينمائي، والله إنهم يمثّلون!

صفّق الجمهور، انطلقت طبلة فرقة المراهقين بقرع حيوي نشيط وتحرّكت جذوع فتيات ممن تجري دماء الفنّ في عروقهن، تميل ذات اليمين وذات اليسار.

قال البائع متأفّفًا : تعبنا يا رجل! ماذا ينتظرون؟ فرفع لقمان كتفيه، ثم استدار عنه بعد أن قرّرالانسحاب من جانبه كي لا يُفسد عليه الفرجةَ بأسئلته الثرثارة وكلامه الغبي.

والله إنه لمنظر مؤثّر مهيب، سمع أحدَهم يقول فيما هو يشقّ الكتلة المَتراصّة بجهد. وأطلقت امرأة بصوت عال وفم يلوك الطعام : أين هما البطلان؟ هيا، أخرجوهما من الشاحنة كيً نراهما!

لو كان الأمر بيد لقمان، لانهال عليها بالضرب، لرفسها على بطنها المتكوّر أمامها، شدّ شعرها وبصق في فمها القذر المملوء بالطعام. لو... رحمك الله يا أبرص. كل ما قلتَه فيهم حقّ. رعاع! قسمًا بالله إنهم حتى أقل من رعاع! قطعان. حيوانات تستأهل المقصلة، تستحق الذبح!

وقف لقمان يائسًا وتولّته رغبة هائلة في المغادرة والعودة إلى النوم، لولا أنه لمح تلك المرأة الجميلة الأنيقة الشقراء تقف على مقربة، منفصلةً عن الجموع، وهي تحمل المذياع في يد وتسوّي شعرها باليد الأخرى.

صعد رجلٌ ضخم المنصة وبأعلى الصوت قال : إن لم يسُد الصمتُ تمامًا في هذه اللحظة بالذات، فسأخلي المكان. فما كان من الصمت إلا أن امتثل وساد .

انفتح باب الشاحنة الخلفي، فنزل «البطلان» ووقفا متلاصقين. هلّلت الجموع، زغردت نساء وصفّق أولاد، فخفضا أعينهما خجلاً. لا، ليس خجلاً. شيء أشبه بالذهول، كذاك الذي يستولي على نجوم هواة يعتلون خشبة المسرح لأول مرة فيفاجأون بهذا الكمّ منَ الجمهور...

نظر لقمان إلى المذيعة، فوجدها ترفع المذياع إلى فمها لتدلق فيه كميات غزيرة من الكلام المختلط باللعاب. ما عساها تقول؟

التفت إلى «بطلي» المهرجان، فوجدهما أكثر تلاصقًا من ذي قبل. لا بأس. سيتركهما للحظات ثم يعود إليهما. في مطلق الأحوال، ليست هذه سوى تحضيرات أوّليّة. لحظة الحسم، اللحظة الأساسية التي لا ينبغي له تفويتها، هي حين صعودهما إلى المنصة. كل ما عدا ذلك، تفاصيل.

انسلخ لقمان عن الكتلة البشرية ليقترب من المذيعة حتى أصبح في مرمى نظرها. التفتت إليه. ابتسم لها فابتسمت بشيء من الغواية والدلال، ثم عادت إلى مذياعها تصبّ فيه سيول الكلمات.

مراسلة إذاعة! قلب لقمان شفتيه بعد أن شعر بشيء من الخيبة، إذ كان يفضّل لو أن الابتسامة جاءته من مذيعة تلفزيون.

وقف مكتوف اليدين، مستندًا إلى شجرة، مديرًا ظهره للمنصة حيث يدور المهرجان، وجعل يحدّق إلى المذيعة ولا يرفع عنها عينيه. لاحظته جيّدًا هذه المرّة. أجل، أكثر من لاحظته. وقعت أسيرة نظراته النهمة التي راحت تعتصر جسدها المكتنز الشهي. يعرف ذلك من نقاطَ العرق المتجمّعة فوق شفتها العليا التي اختلجت قليلاً، من صوتها الذي تهدّج، ولكنتها التي راحت تتلوّن بألف لون :

«... بعد تلاوة حكم الإعدام الصادر في حقّهما عن محكمة الجنايات، تقدّم القاضي المنفرد المدني من المحكوم عليهما وسألهما عما يوصيان به ويريدان قوله قبل تنفيذ عقوبة الإعدام بهما، فأجاب الأوّل مرتجفًا والدموع تتساقط من عينيه وقد امتقع لون وجهه : وصيتي ألا تموت والدتي من القهر حزنًا عليّ، بينما قال الثاني : لا وصية لديّ. وبكى وخارت قواه...».

مدّ لقمان يده إلى أسفل البطن : هيّا، انهض يا «زميل»، قُم وتمتّع بمرأى هذا المهرجان الأشقر البهي. فرفعت المذيعة يدها إلى صدرها تحكّ بأظافرها الطويلة اللمّاعة الحمراء، حتى برزت حلمة الصدر قاسية ناتئة من تحت القميص الأبيض الشفّاف، تُعامل لقمان بالمثل وتردّ له الصاع صاعين.

اللئيمة! ردّد لقمان في نفسه. تهتاج ولا يصيبها ارتباك، بل تتابع ببلاغة دون أن يفلت من يدها خيط الكلام :

«... وازدادا رعبًا لدى رؤيتهما منصّة الإعدام وحبل المشنقة، فعجزا عن المشي بعد أربعة أمتار وتلاشيا. وانهار الأول كلّياً وسقط أرضًا وتعثّر الثاني، مما حال دون ارتدائهما ثوب الإعدام الأبيض

وفق العادات المعمول بها، فحملهما رجال الأمن إلى المنصّة...».

نظر لقمان حواليه. لا أحد يراه، لا أحد يراهما. الجميع شاخصون إلى المنصة وما يدور عليها. ماذا لو جعل «الزميل» يلقي على المذيعة تحية الصباح، فينفّس من احتقانه ويتنسّم بعضاً من الهواء؟

«... وأدخل الجلاد رأس الأول في الحبل بسرعة. وانتقل إلى رفيقه وطوّق رأسه بالحبل، ثم سحب المنصة الخشبية من تحت أقدامهما، فتدلّيا في الهواء وراحا ينتفضان إلى أن أسلما الروح بعد لحظات... وهتفت جموع بعد تنفيذ الحكم : يعيش يعيش، ثم كان تصفيق. وقُدّر عدد الذين شاهدوا تنفيذ عملية الإعدام بآلاف قدموا من مختلف المناطق، وشهدت شرفات المنازل وسطوح البنايات المحيطة بالساحة حشدًا كبيرًا...».

■■■ ■■■

رفع لقمان رأسه وقال : لِم لا نذهب إلى بيتك؟

لأني أعيش مع الأهل، أجابت، وهي تمسكه من أذنيه وتعيد فمَه إلى موضعه أسفل البطن.

رفع لقمان رأسه مرة أخرى وقال : لا بأس، نذهب إلى بيتي إذن، ما رأيك؟

فردّت المذيعة بشيء من العصبية واللؤم : لم ينته دوامي بعد! على كل حال، حصل خير. بإمكانك الانصراف فورًا لو شئت.

ضحك لقمان. إلى أين؟ أنا صدّقت؟ لا لزوم للغضب يا... أنا في أمر الستّ.

غرزت الآنسة أظافرها في ظهر لقمان حين نالت مرادها، فارتخت أساريرُها دفعةً واحدة. قامت تصلح من قعدتها وفتحت عينيها تحدّق إليه.

وحين أوشك لقمان أن يقوم فوقها، أبعدته بيدها وقالت : آسفة، لا أستطيع أن أخدمك، فأنا لم أزل عذراء.

ابتسم لقمان وهزّ برأسه وأجاب وهو ينزع من على لسانه شعرةً علقت فيه : لا بأس.
وحين سألها أن تعامله بالمثل، نفضت شعرها إلى الوراء ولوّحت

بيدها أمام وجهها تعبّر عن استيائها من الحرّ.

أعاد لقمان سؤاله في صيغة أخرى، بأن أمسك بيدها لكي ... فسحبتها مجفلةً وتناولت المفتاح بعصبية لتضعه في القفل وتدير المحرّك. ثم كتّفت ذراعيها وجعلت تحدّق أمامها إلى الطريق وهي تهتزّ.

صمت لقمان وظلّ ينظر إليها، ثم قال : نلتقي مرة أخرى؟

فالتفتت إليه تداعب خدّه وتقول : لا عليك. انسَ ما رأيتَه منّي اليوم. الأفضل لك أن تنسى، وإلا بعثتُ وراءك من يُنسيك اسمَك، فهمت؟ ثم انحنت عليه بجذعها تفتح باب السيارة، وبقدمها العارية دفعتْه.

وقف لقمان ويداه في جيبه. قال وهو يرفع عينيه إلى السماء المكتنزة بالسحاب :

هكذا هي الحياة «يا زميل»، يومٌ لك ويومٌ عليك !

ثم سار.

— ٤ —

لم يزل الحيّ نائمًا.

ولولا أكوام النفايات وأكياسها المبقورة البطون المذرّاة الأحشاء التي تعبث بها أيدي أطياف ملثّمة متنكّرة لا تظهر منها إلاّ العينان، لظنّ أنّه في حيّ للأغنياء.

هذي فصيلة جديدة ، فكّر لقمان. فصيلة «العائلات المستورة» كما يُشاع ويُقال، تلك التي ما عادت تخرج إلا تحت جنح الليل بعد أن امتنعت عليها الأمكنة التي تُقصد في وضح النهار، فصيلة من جرّدتهم الحرب ومن بعدها السلام، من أسنانهم وأظافرهم وقدرتهم على الشراء، تلك التي تمتاز من فصيلة المتسوّلين بأنها لم تزل على شيء من كرامة وكبرياء، على بعض من وجل وحياء، بحيث أنها ما عادت تكتفي بارتداء الملابس المستعمَلة، بل تحوّلت إلى استهلاك الأغذية المستهلكة هي أيضًا.

يراهم لقمان موزّعين على أطراف الحيّ كشجر متقصّف محروق الثمار، كحشرات غريبة الأطوار، فيشيح النظر عنهم كي لا يشوّش على نفسه متعة دخوله في حميمية هذا الحي المستكين، الشبيه بغرفة نوم زرقاء مستغرقة في السُبات.

كلّما دخله لقمان، شعر بأنه ينزل بدل أن يصعد، بالرغم من أنه حيّ قائم على تلّة صغيرة ومشرف.

ربما هي أصص النباتات التي تزيّن المداخل المتآخية مع الشارع الصغير، والتي تعلو درجتين أو ثلاثاً كأنما لتبقى على مقربة، مشرّعة ومرحِّبة تدعو العابر إليها كي يتفضّل ويجلس ويستريح. للحظات. لساعات.

وربّما هي الأبنية الواطئة التي لا تزداد طبقاتها على اثنتين أو ثلاثة بألوانها الباهتة الصفراء، ونوافذها المحتمية بستائر رقيقة خفيفة مزدانة بالكشاكش والدانتيل.

حمداً للّه، ردّد لقمان في سرّه، فلم تزل هناك أحياء على شيء من الخفر والحياء في هذه المدينة الفاجرة المزدهرة بأبنية شبيهة بحيوانات أسطورية تذكّر بزمن انقرض، بزمن سيجيء. أبنية وهمية تُبنى لأمراء وهميين وتنهض من كل حدب وصوب، في كل يوم، بوقاحة واحتقار. لها أسماء غريبة مغرية ورسوم جذّابة ومواصفات تتفوّق على ما يفوق الخيال. بنايات تنهض ولا تتمّ. تبقى معلّقة في الهواء. كالأشباح. كالمسوخ حين يزدادون طولاً وهبلاً، وكذوي الشأن حين يُصابون بالتخلّف العقلي، جنون العظمة وأمراض الهلوسة والذاكرة والأعصاب.

ربما لذلك كلّه، يحبّ لقمان حيّ سلام ويشعر فيه بشيء من الأمان.

■■■ ■■■

كانت تكبره بسنوات ولم تك جميلة. لذلك ربما أحبها الأبرص، إذ كان يكره النساء ولا يأمنهنّ.

جارته التي كانت تنزل إلى «الشباب» بصواني القهوة والعصير والأكل والسندويشات، حين في بداية الحرب، كان «الشباب» ينتدب نفسه للسهر على حماية الأحياء السكنية من غزوات مفترضة، بعد أن انقسم أهلُ المدينة إلى لصوص وأبطال، أخيار وأشرار.

لم يقربها الأبرص أبدًا. وحين كان لقمان يمازحه ملمِّحاً إلى مؤخّرتها المكتنزة التي ترتجّ لدعساتها، كان يقول : إنها أكثر شرفاً من كل النساء ! وحين يجيبه لقمان : وما أدراك؟ يغضب الأبرص، تتعثّر الكلمات في فمه ويصطبغ وجهه بالاحمرار. يصمت لقمان ويعتذر، إذ كان يخشى على الأبرص من فورات غضبه، لا على نفسه منه.

سلام تركة الأبرص له.

ليت ذوق الأبرص كان أفضل حالاً بقليل. لم اخترتَها هي بالذات يا أبرص، وما الذي يشدّك إليها؟ خيط معدنَي خفي، أقسى وأمتن من أن تأتي عليه «ألغامك» يا لقمان، كان يجيب.

وحين حصدت القذيفة والديْ سلام المختبئين من القصف في الملجإ، هلّل الأبرص طربًا وفرحاً. أبداً، لم يره لقمان على مثل هذا الحماس والانفعال. لَمْ تبك يا لقمان، كان يردّد، وحين رحتُ إليها كي أعزّيها، نظرتْ إليّ طوَيلاً وقالت بشيء من اللوم والعتاب : تعزّيني بعجوزين يا أبرص، فيما «الشباب» يموتون بالعشرات، بل بالمئات؟

يومها، تيقّن الأبرص من أنه يحبها، منذ زمان، من اللحظة الأولى، فما كان منه إلا أن قبّل يديها ورأسها وأطلق على شرفها عشرين طلقاً من الرصاص...

■■■ ■■■

قرع لقمان الباب بيده. هذا تفصيل آخر لمصلحة سلام. باب خشبي بزجاج أغبش. لا جرس ولا كهرباء.

استفاقت.

سمع باب غرفة النوم يئن. سمع قدميها ثقيلتين بخفّيهما تحفّان البلاط الأصفر العتيق. لو نحفت قليلاً، لربما... حتى لو نحفت، فأين يذهب بسنّها التي جاوزت الأربعين، بذقنها الموبر ووجهها الذي كلما رآه، شعر بالجلد يتهاوى أو يسيل؟ أين يروح بشفتيها المبتورتين وماذا يفعل بثدييها الصغيرين الجافين؟ مؤخّرتها! أجل، إذا ركّز على المؤخّرة... ربما... وقد يعنّ له. لكن، إن عزل بقية التفاصيل وأبقى على المؤخّرة ، أفلن تطلع له هذه الأخيرة بمفاجآت؟

انفتح الباب.

لم يخطئ الظنّ. فاجأها بقدومه عند هذا الصباح، ففاجأته بعينيها المجعّدتين وشعرها القصير الواقف على جانبي رأسها كقطة يصعقها التيّار الكهربائي.

ابتسمت وعانقته، فصعدت إليه رائحة فمها. التصق عرقها الدهني بخدّه، فدفعها عنه. قد يرانا أحد قال، فنظرت إليه ممتنّة، ثم أدخلته.

انتبهْ ألاّ تدوس على الفخاخ! الجرذان قتلتني، قالت، ثم غابت في

الحمّام.

سمع رشّاشة الدوش، فقام يجول في غرفة الاستقبال. أثاث عتيق ولا غبار عليه. يلمسه. بارد ونظيف. دفع باب غرفة النوم، فبان له السرير. شراشف بيضاء. بيضاء ونظيفة كالثلج، كجسد مارينا البهي. لا! ينبغي له أن يُبعد مارينا عن عينيه الآن. إكراماً لسلام، لكل ما تفعله من أجله من دون مقابل، أو من أجل مقابل ما انفكّ يحيا قيد التأجيل.

في البداية، حين جعل يزورها بعد موت الأبرص، بقيت على تحفّظ كبير. ثم، في نهاية الحرب، عندما راح الرفاق يُصادون ويُرمون في السجون، جاءت إليه ذات مساء وقالت : لا تبق ثانية واحدة هنا. عندي، سوف تكون في أمان. جمعت أغراضاً له وصحبته إلى بيتها وقالت : تبقى هنا فلا يراك أحد أو يبلّغ عنك.

وما عاد أحد يراه لأسابيع.

تعود إليه من عملها في مركز الهاتف ـــ السنترال كما تقول ـــ محمّلة بأخبار الأغراب والأقرباء، الحلفاء والأعداء. وفي المساء، تعدّ العشاء وهي تحدّثه عن الأبرص، عن عمرها الذي انقصف بموته، وحظها العاثر الأسود الذي أفقدها رفيقاً وأخاً وزوجاً وأباً لأولاد لن يجيئوا. تصمت لحين، ثم تقفل كلامها بقَسَمها بأنها لن تفكّر في رجلٍ بعد الآن.

أسابيع إضافيّة.

وها هي سلام قد استساغت وجوده وما عادت تتحدّث عن الأبرص وهي تعدّ العشاء. صارت تهدهد في سرّها حلم الزواج من لقمان. عرف ذلك من أخبار الدهم والاعتقال التي راحت تختلقها أحيانًا وتبالغ في روايتها، كي يخاف وتبقيه. ثم تيقّن من ذلك حين جعلت تمطره بالهدايا، وتغدق عليه علامات التكريم والاحتفاء.

أسابيع إضافية أخرى.

وها هو لقمان يستسيغ بدوره الإقامة في هذا الفندق المترف المجاني. غير أن سلام فاجأته. فهي لم تكتف بذلك النوع من وسائل الإقناع، بل قرّرت الالتجاء إلى كمّ هائل من الصفات الخلقية الحميدة التي بدأت تعلّقها على صدرها أوسمةً، أو تغرزها في صدره كالدبابيس:

ـ أفليست المرأة الحق هي سيدة البيت قبل عارضة الأزياء؟ أوليس الشرف والإخلاص عمادين أساسيَّين لإنجاح مؤسسة الزواج؟ أوليست اليد بحاجة إلى عون أختها كي تتمكّن من التصفيق؟ وسواها من العبارات المواربة «الملغومة» التي يقف في نهايتها قفص الزواج.

في البدء، تورّط لقمان في لعبة سلام لاعتقاده بأنه هو من يقوم بتوريطها، فراح يردّ على أسئلتها شاهراً في وجهها حججاً مضادة تغذّي لعبة الابتزاز تلك، وتزيد من حماستها ورغبتها في الإقناع. غير أنها استشرست فما عادت تقف عند حدّ، ممّا جعله يتنبّه للخطر ولضرورة النفاذ بجلده قبل فوات الأوان.

حين أعلمـها أن بنيّـته المغـادرة، غضـبت وصفـعتـه. ثم تذرّعت بالخوف عليه وبـعناده الذي يشبه فعل انتحـار. الآن، ركنت وعقلت وهدأت بعد طول عذاب. يئست ربما. أو أنهـا فهمت واكتفت بزياراته لها من حين إلى حين.

ولم تزل تغـدق عليـه. تحـبّه بصـمت وتغـدق عليـه. ومع ذلك، وبالرغم من كل ما تفعله له، لا يقع لقمان في الفخ. بل يبقى «وفياً» لذكرى صـديقٍ كان له. ولا يقربهـا، كي يفهمـها أنه إنما يرى فيـها المرأة التي يحترم ويجلّ، الزوجة الـتي لا يستحقّ، هو من لا ماضيَ أو مستقبل له.

يقنعـها بهـذا كله ولا يحـتاج إلى كـلام. فقط من خـلال نظرات وحسرات وتنهُّدات تأخذ سلام في تفسيرها أيّامًا، بل أسـابيع. حتى يحين موعـد زيارة تالية ولغم جديد، لغـز محكم الإغلاق، يلقـيه بين يديهـا فتنشغـل عنه. تنكبّ هي على تفكيك لغمـه، ويفلت هو لفـترة تختلف مـدّتها ــ بحسـب ما يناله منها من ذخـيرة ــ فلا تتـعدّى الشـهر...

■■■ ■■■

خرجت سلام من الحمّام ترافقها سحابةٌ من صابون وعطر. ها هي .أفضل حالاً بكثير. بالفعل، أفضل حالاً بقليل.

صحبها لقمان إلى المطبخ. أعدّت الفطور. قريشة ولبنة وصعتر وبيض مقلي وأجبان. نعناع وطماطم وخيار. وخبز ساخن كأنه طازج، كأنه خارج توّاً من بيت النار.

جلس إلى الطاولة قبالتها، فقالت بشيء من الدلال وهي تقطّع وتملّح وترش البهار :

ـ ما الذي صحّاك باكراً هكذا؟ أم أنك أمضيت الليل خارجاً كالعادة، فضجرت وتذكّرت سلام.

ابتسم لقمان. ها هو العرق عاد يتجمّع على صدغيها وأعلى شفتيها المبتورتين. بعد قليل، ستظهر البقع تحت إبطيها الكثّين. امرأة تعرق، هذا ما يفوق قدرته على الاحتمال. سلام، امرأة للشتاء. مارينا للصيف والانتعاش.

ـ لم أنم البارحة.

ـ لماذا؟

ـ بعد منتصف الليل وحبّتي منوّم، أيقظتني والدة الأبرص. كانت مصابة بنوع من الحمّى أو الهذيان. جعلت تدقّ أرض الغرفة فوق رأسي، بقدميها وتنادي : يا سلام! أركضي إليّ يا سلام! قمتُ كالمجنونة وصعدت السلّم أربعاً أربعاً وأنا أفكّر في أن أحدًا قدم إليها للسرقة أو القتل. حتى وجدتُها وحيدة في قميص النوم. أعطيتُها مهدّئا وقلت لها : اهدأي يا لوريس، فهدأتْ. وانتظرتُ إلى

أن اطمـأننتُ إليهـا ونامت قـرابة الفجـر، فنزلتُ أنام... لم أشـعلتَ سيجارة، لم تأكل شيئًا بعد!

مجّ لقمـان سيجارته عـميقـاً، ثم نفث الدخان دوائر وهو يُرجع كرسـيه إلى الوراء. ينبـغي له أن يحيـد بها عن الثـرثرة التي تحبّ وتجـيد، أن يسـتدرجـهـا إلى سؤاله عن أحـواله فـيضع لهـا اللغم ويصيب. في نيّـته أن يرى مارينـا هذا المساء. غيـر أن رؤية مارينا تحـتـاج إلى دولارات، والدولارات في حـوزة سلام، وسـلام تعـدّ القهوة وفمها لم يزل يلغط بالكلام :

ــ مسكينة لوريس. قالت إنها رأت الأبرص في منامها وإنه كان يحدّق إليـها بعينين واسعـتين. وحين سألتْه عـمّا به، لم يُجبها وما نبس بحرف. وفي الـنهاية، قام إليـها يملّس على شـعرها ووجهـها بيديه الاثنتين، إلى أن طوّق عنقـها وراح يضغط بقوة حـتى شعرت بالاختناق...

فسـتان سـلام ملتصق بمؤخـرتها والذيـل مزموم وقـد ارتفع، فبانت عروق صـغيرة زرقاء ــ ليلكية في ثنية الـركبتين. تقف أمام المجلى، تفرغ الصحون وتجلـو. السروال الداخلي بارز الحدود وقد ضغط الإليتين في سعيه إلى ضمّهما، فبانتا وكأنهما مصنوعتين من أربعـة أقسـام. مـؤخرة سـلام بمؤخـرتين، واحدة داخل السـروال والأخرى خارجه.

تجلو سلام وتمعن مؤخّرتُها في الكلام، فـيعرق لقمان وينتصب «الزميل» كي يردّ على مؤخّرة سلام...

ما بك تهتاج وتنتصب من دون استئذان؟ أمعنْ النظر يا «زميل»

ولا تخطئ. فهذه التي تراها في هذا المطبخ، ليست سوى سلام !

لا بأس؟ تضع رأسها في كيس نايلون من النوع السميك، فتُخفي ملامحها ويُخيّل إليك أنها امرأة أخرى سواها؟

أهذا هو عرفانك بالجميل وتعبيرك عن الامتنان؟ حسناً يا «زميل»، وماذا بعد؟

تحشرها في المجلى، ترفع الثوب وتمزّق السروال كي ...

اهدأ يا «زميل». إن فعلتَها مرة، فلن تتركك سلام بعد الآن في سلام. ستمصّ دماءك حتى تجّف وتذوي وتيبس وتغادرك الحياة. أوترضى عن هذا، أهو ما تريد؟

لقد فاض بكَ ومللتَ، وإنما للصبر حدود؟ ومنذ الفجر وأنا أعذبّ فيك وما ذنبك أنت؟

وما ذنبي أنا يا «زميل»، إن كانت المذيعة الشقراء عاهرة وقحبة وحقيرة وابنة أوغاد؟

هيا، انسَ سلام ومؤخرتها لأنك، ولو اقتنعتُ منك، ستخيب. اسمع، إن استمرّ هياجك...

ـــ لقمان، لن أتأخّر. أناول لوريس صينيّة الطعام، ثم أعود فورًا.

قالت سلام هذا ثم خرجت.

فحمل لقمان «زميله» ودخلا الحمّام.

ـــ ٥ ـــ

رمت إليه مفاتيح السيارة وابتسامتها عريضة. كرهها. كم كرهها. ليته لم يجئ إليها هذا الصباح. تعرف تمامًا لم جاء وتتحايل. تطيل انتظاره كي تمتحنه، كي تمتحن قدرته على الانتظار.

عانس وقبيحة وعلى دهاء. هكذا يراها لقمان الآن. بودّه لو يقود بأقصى سرعة ممكنة، يفتح الباب ويثب، وتتابع هي طريقها إلى الشجرة ومنها إلى الحاجز الحجري، فتقفز عليه نحو الهوة، حتى ينطحن جسدها داخل الحديد، على الصخور المسنّنة وفي الهشيم. بوده لو...

أدارت سلام المسجّلة بعد أن حشرت شريطًا بين فكّيها، فراحت هذه الأخيرة تغنّي بنعاس في البداية، ثم انطلقت بنشاط.

فتح لقمان النافذة التي كان قد أقفلها في زحام السير والغبار، فهب عليه هواءٌ تبرّد قليلا بعد أن تمرّغ بالصنوبر الذي كان يمرّ بهما على حوافّ الطريق الملتوية الصاعدة إلى جبل قريب.

لولا هذه الغيوم الثقيلة، لكان تبدّل مزاجُ لقمان كلّيّاً ولشعر حتى بما يشبه الفرح. لا بأس. فمزاجه قد انقشع قليلاً، وها هو حتى ينظر إلى سلام ويغمزها بعين لا تنمّ عن الكراهية والحقد اللذين

شعر بهما إزاءها منذ ثوانٍ.

يطالبها بالكثير ويغضب عليها حين تتصرّف كالنساء. لا بأس إن حرنتْ أحيانا يا لقمان. فسلام مهما كانت، تبقى من صنف النساء ولها أمزجة النساء. اتركْ لها أن تتدلّع قليلاً من حين إلى حين. اعتبرها كلبة، أفلا يحقّ لها أن تطالبك بشيء من الاكتراث والحنان؟ حسنٌ أنك قبلت مرافقتها. امرأة يتيمة ولا معيل. خيرٌ تقوم به وتُجازى عليه بحفنة من الدولارات، إن شاء الله. تفاءل بالخير تجده. اضحك تضحك لك الدنيا وفوقها سلام.

تنفّس لقمان عميقًا، دندن لحن الأغنية التي في المسجّلة، ثمّ نظر إلى سلام وقال ممازحًا ومغازلاً : آه يا سلام !

■■■ ■■■

قالت المسؤولة بعصبية ظاهرة : وحدهم الأطباء يدخلون بسياراتهم إلى المصحّ. ثم التفتت ناحية سلام وتابعت : إن لم يركن خطيبك السيارة في الخارج، فلن تري سليم وسألغي الزيارات!

سكت الاثنان :

سلام من خوفها على سليم، أخيها الصغير. كل أحد، تأتي لزيارته في هذا المصحّ الحكومي المجّاني. تحمل أصنافًا من الحلوى والطعام. تعطيه ملابس نظيفة وترجع بما اتسخ من الثياب. لو كان في مقدورها لوضعته في عيادة خاصة، أو لأخذته للمعالجة في بلاد أجنبية مجهّزة بأفضل التقنيات. لو...

ولقمان خوفاً من أنّ سلام، إن منعتها المسؤولة من الزيارات، قد تُخرج أخاها من المصح الحكومي بعد أن شقي أسابيع طويلة في إقناعها بضرورة إدخاله إليه. وهذا معناه عودة سليم إلى البيت مع ما يستدعيه ذلك من استخدام ممرّضة خاصة لحراسته والاعتناء به. ومعناه خاصةً مصروف إضافي ودولارات سيُحرم منها هو، كي يستفيد ذاك الأبله سليم...

انحنت سلام على صندوق السيارة تخرج منه بعض الأكياس، ثم اتّجهت إلى المدخل وهي تقول : لم لا تصحبني، سيفرح بك . ردّ لقمان أن لا رغبة له في رؤية تلك المسؤولة القحبة مرة أخرى، وإلا أتى ما لا تحمد عقباه. ثم أردف : أنتظرك في الحديقة، فوافقت سلام معقّبةً أنها لن تطيل.

عاد مزاج لقمان مكفهراً بعد أن رآها تأخذ الدرج وتغيب فيه. الله

وحده يعلم ما الذي ستجبره على فعله الآنسة، بل العانسة سلام. لم لا تعطيه ما يطلب وتتركه يذهب في حاله؟ لم تصرّ على تعذيبه هَكذا؟ تبّاً لها ولحفنة الدولارات التي تمنحه إياها بالقطّارة. عانس وبخيلة وتجبره على اصطحابها إلى مصحّ المجانين! ما حاجتها بالمال؟ هي التي لا تدفع إيجارًا طالما ورثت عن أهلها البيت؟ هل يعوزها غير مصروف الأكل والشرب وبعض الثياب؟ حسنًا، وبقية المعاش؟ لمَ لا تعطيها للقمان؟ هكذا. نكاية به! كي تحرق أعصابه في كل مرة يأتي إليها. كي تمصّ دمه وتخرب عيشته وتدمّر مزاجه.

قحبة! كل النساء قحاب من دون استثناء. أمه نفسها كانت قحبة. تضربه لأتفه الأسباب. من دون سبب حتى. تضرب حتى تسيل الدماء من فمه. وحين يأتي أبوه، تعود وتشكوه، فيضربه هو الآخر ويربطه إلى الشجرة لساعات.

ولمَ كل هذا الضرب يا لقمان؟ لأنك قتلت قطة جرباء، أو رميت حجرًا على دجاجة، أو شنقت أرنبًا. حيوانات يعزّها والداك أكثر منك ويضربون، بدل أن يعاقبوا أصحاب الشكاوى من أهالي القرية والجيران.

حين غادرتَهم قبيل اشتعال الحرب، رحلتَ غير آسف غير ملتفت إلى الوراء، معلّلاً النفس بغياب أبديّ وبعودة محتملة يكون هدفها الأوحد هو الانتقام.

وحين علا نجمُك وسطع خلال الحرب، لم يتركوك في حالك. بل صاروا يأتون إليك مرارًا وتكرارًا، وبك يستجيرون : إخوتك عراة،

الأرض قحلت، الموسم قحط، أمك مريضة، أبوك يحتاج إلى علاج، سقف البيت ترابي وسينهار... طلبات ومطالب لا تنتهي. وادفعْ يا لقمان، أعطِ يا لقمان. ساير يا لقمان. وحنّ وارأفْ وأشفقْ وادفع يا لقمان. ادفَعْ!

وحين انتهت الحرب وانقلبت عليك الأيام، فرغت جيوبك وعدتَ فقيرًا، التفتوا عنك ونسوك. وحين سألتهم مساعدة، عادوا إلى التظلّم والشكوى والنواح : من أين لنا؟ وما اعطيتَنا لم يكف لإنهاء العمارة التي بأربع طبقات، فاضطررنا إلى رهن الأرض والاستدانة... ولم تصرخ هكذا؟ وذنَبُ الكلب يبقى أعوج. ومن أصلك ابن حرامَ. واخرج ولا تعد. ونحن أهلُك ننكرك ولا نتعرّف عليك. وسنجلب لك الدولة وقوى الأمن، إن لم تكفّ عن الصراخ...

ـــ إن لم تكفّ عن الصـراخ، ألبستُك قـمـيص المجانين وأقـفلتُ عليك!

ركـضت سـلام تضـع يدها على فـم سليم وتَعـد المـرّض بأنه سيكفّ عن الصــراخ بعد قليل وأنه، أي المـرّض، لَن يكون إلا ممتنّا إن تركها لدقائق إضافية مع أخيها الصـغير.

صغيـر!؟ أجاب الممرّض، من كان في مثل سنّه أصـبـح له أحفاد. ثم إنه يهيّج البـقية، فـإن هاجوا وبدأوا بدورهم الصراخ، فـما الذي سأفعله وما أقول للمسؤولة حـينذاك؟ الزيارة تتمّ عادة عبر السياج المعدني. ها إني أدخلتك إليه، وهذا ممنوع. ما الذي تريدينه مني بعد يا سيدة سلام، أن أخسر عملي؟ حرام عليك، عندي أولاد!

ابتسـمت سلام وقالت : أترى، لقد هدأ. صــرخ كي لا أغادر، كي أبقى مـعــه وقتًـا أطول. ألم أعـدك بهـدية؟ دعني أبْقَ ولن تكون إلا ممتنًا.

حسنًا أجاب المرّض. حضّري الهدية. ربع ساعة وأعود.

عاد سليم يجلس قرب أخته سلام. عـاد يطرق برأسه على كتفها ويلحّ في الطلب. نظرت حولها، فرأتهم جميعا هادئين، ينظرون إليها ويلحّون في الطلب.

فتحت سلام أزرار قـميصها وهي تفكّر في التضحـيات العظيمة التي تبذلها من أجل أخيها كي يبقى على مظهره الآدمي. والآخرون؟

ألا أهل لديهم وأخوات؟ ترى ثيابهم الممزّقة، أظافرهم الطويلة المتّسخة، أقدامهم العارية السوداء، وجوههم الممتلئة بالجروح والدمامل والكدمات، ثم تعيد التأمّل في وجه سليم وتحمد الله.

يلقي برأسه على صدرها ويلحّ في الطلب، فتمدّ يدها إلى ثديها، تخرجه وتعطيه إياه. يرضع سليم. يغمض عينيه ويتفرّج الآخرون. أحيانًا تفكّر أنه يحتال عليها بنوبات الصراخ كي تعطيه الثدي. كيف عادت إليه هذه الذكرى؟ كيف تذكّر أنها كانت تعالجه بثديها حين لم يكن عمره سوى بضع السنوات؟

هي التي ربّته. أنجبته أمهما وكانت سنّها قد قاربت الخمسين. كانت سلام قد شبّت وحيدة بعد أن قرّرت رحمُ أمها التوقّف عن الإنجاب. ثم عادت لتغيّر رأيها فجأةً وتأتيها بسليم. وكم كان متفوّقًا أخوها الصغير. بفضل سلام. هي التي ربّته. سهرت عليه وأطعمته وهدهدته ونمّته ودرّسته و... وأرضعته حتّى...

حتى وقعت الحرب.

الحرب هي المسؤولة عن فقدانها له، عن فقدانه لعقله وعن فقدان عقله الصواب. أم هو الأبرص الذي راح يصطحبه في جولاته الليلية وعمله الليلي.

كل ما تذكره هو أن سليم عاد ذات يوم مغسولاً بالدموع. قال إنه يكره الأبرص وإنه لا يرغب في رؤيته بعد اليوم. صفعته سلام.

صفعته بكامل قوتها وصرخت به : اخرس يا جبان. أنت لست رجلاً، أنت دجاجة. أنا براء منك ومن عارك يا حقير!

حتى قاطعته.

وما عادت تكلّمه. وصارت تنزل في كل ليلة إلى "الشباب" بصواني القهوة والعصير والمرطبات والسندويشات، نكاية به، علّه يُشفى من جبنه. علّه يصطلح ويعود إلى الصراط المستقيم.

حتى أحبّها الأبرص.

أحبّها وأنقذها من العار وشماتة الأقارب والجيران. حماها كما كان يحمي أهل الحيّ من الموت على أيدي الأعداء.

حتى خطبها الأبرص.

فوجدت سلام مكانها. وأي مكان! أصبحت لها كلمتها وصارت نسوة الحيّ يطلبن رضاها. أليست خطيبة الأبرص، سيّد الرجال الذي كانت ترتجف لمروره أحياء مجاورة وأحياء مجاورة أخرى للأحياء المجاورة الأولى...

حتى جاءت القذيفة إلى الملجإ وحصدت والديهما ومعهما سلامة عقل سليم.

صار أخوها لا يخرج من غرفته إلا لمامًا، ويأرق طويلاً ولا ينام.

وإن نام أيقظته الكوابيس، أو ارتفعت حرارته وأصيب بالحمّى وشتّى ضروب الهذيان.

حتى جُنّ الصبي.

يقف في مدخل البيت، على مرأى من الجيران، ثم يصوّب رشاشًا وهميًا ويبدأ بإطلاق رصاص من اللعاب. يطلق رصاصًا وهميًا من رشّاش وهمي على أناس وهميين في حرب وهمية.

حتى مات الأبرص...

حتى انتهت الحرب...

حتى راحت إلى لقمان تقنعه بالاختباء في بيتها.

حتى أقنعها لقمان بضرورة وضع سليم في مصح عقلي.

حتى وضعته في مصح حكومي ظنًا منها أن لقمان محرج من أخيها أمام الناس، وأنها لو تخلّصت منه، فسيتزوّجها ويسكن معها ويعوّض عليها سنوات الحرمان الطويلة التي عرفتها بعد رحيل الأبرص...

حتى شعرت بخطى الممرّض تتجه إليها، فدفعت عنها سليم تعيد ثديها داخل القميص، تقفل أزراره وتسحب ورقة من فئة خمسة دولارات كي تعطيها للممرض، وتنسحب على عجل غير مكترثة لصراخ أخيها وزعيق زملائه المجانين...

■■■ ■■■

أشعل لقمان سيجارة، ثم راح يجول في الحديقة المحيطة ببناء المصحّ العقلي.

ليس أفضل من الطبيعة لتهدئة الأعصاب. لو بقي على ثرائه، لو لم تنته الحرب، لكان شيّد قصرًا على جبل ناء عال، وملأه بالحيوانات النادرة الغريبة ولعاش فيه وحيدًا مع مأرينا الثلجية البيضاء. لو...

يبتسم لقمان. لو سمع أحد ما يدور في رأسه الآن، لقبض عليه فورًا كي يستبقيه ضيفًا أبديًا في هذا المكان. من ذا الذي يصدّقه إن قال وروى عمّا كان عليه من نفوذ وسطوة ودولارات؟ لا أحد! خاصة بعد أن صار الثراء السريع حلمًا يراود الجميع في هذه البلاد.

حين يراهم يجولون بهواتفهم الخلويّة، بنظاراتهم السوداء ومفاتيح سياراتهم، يصاب بالغثيان. أفلت زمام الأمور وصار كل حيوان ديكًا صيّاحًا يتبختر علانيةً وبكل غرور. اختلط الحابل بالنابل وضاع أصحاب الأصول في الوحول. الحيوانات! يجوعون ويشترون هواتف خلويّة. يفلسون ويستدينون ثمن سيارة. قنبلة نووية وينتهي الأمر. محرقة جماعية. إبادة عن بكرة أبيهم ويرتاح لقمان.

لغم من نوع الألغام التي تجيدها يا لقمان، وتروق وترتاح. أتذكر؟ كانت أيامًا جميلة والله. تفبرك ألغامك ويأتي التجار. بيع وشراء. ثم تطوّرت أعمالك واتّسعت، فصرت والأبرص شريكين،

تؤمّنان الألغام وما تستلزمه من متابعة وخدمات. ثم وفقك الربّ، والرب كريم حين يوفّق أحدًا ما يا لقمان، فصار لديك فريق عمل يحسدك عليه الأميركان. بدأت تورّد وتعمل مع جنسيات مختلفة، حتى ضاهيت بصيتك أكبر المحترفين العالميين.

والآن؟ ها هو مصيرك مرتبط بالعوانس وبأنصاف النساء من أمثال سلام، أنت الذي كنت قادرًا يا لقمان على تركيب أشهر وأثرى القحاب في العالم، أنت الذي كنت قادرًا يا...

ــ لقمان؟ معقول؟

لم يعطه الصوتُ فرصةً لتمييز الوجه أو للجواب، إذ ارتمى عليه يعانق ويقَبّل ويربت على ظهره وكتفيه، حتى أصيب بنوبة من السُعال، فأبعده لقمان عنه يجلسه بجانبه على المقعد الحجري.

ــ نجيب! أهذا أنت؟ أخفتني يا رجل، ظننتُك مجنونًا تمسّك بي... قل، لِم ترتدي هذه الثياب، وما الذي تفعله هنا؟ هل أنت مريض؟

— ٦ —

دخلت سلام المطبخ تعدّ طعام الغداء.

حين كانا عائدين بسيارتها من المصحّ، بقي لقمان صامتًا. سألته عمّا إذا كان متضايقًا، فلم يُجِب واستمرّ على صمته إياه، حتى حرنت بدورها وعافته.

خلال طريق العودة، لم يتوقّف عن التفكير في نجيب. يا إلهي، كيف تدور الأيام حين تدور، وإلى أية درجة يقسو الدهر حينما يقسو.

منذ زمن لم يحزن لقمان على أحد. منذ زمان ولقمان نسي الحزن ومعناه. غير أن منظر نجيب المحزن أحزنه بما يفوق قدرته على الاحتمال، إذ ذكّره بما أصابه هو لقمان.

قام يصبّ لنفسه كأس ويسكي. أدار المروحة نحوه إذ عاد الحرّ يضغط رئتيه، ثم عاد يجلس على الكنبة بعد أن رفع رجليه على المنضدة الصغيرة أمامه وأقفل عينيه.

ما الذي جرى لعقول الناس؟ تبًّا للناس، ما يهمّه في النهاية هم

الرفاق. ما الذي جرى لعقول الرفاق؟ عن أي رفاق تتحدّث يا لقمان. منذ دهر وأنت لم تر أيّاً منهم. منذ دهر نسيتهم ونسوك وتبعثر كلٌّ منكم في مكان. صحيح أنك تهتف أحياناً لبعضهم ممن تركوا البلاد. تخابر لسببين حتمًا، ليسا الشوق أو الرغبة في الاطمئنان، بل أن سلام تعمل في السنترال، وهذا معناه مخابرات مجانية، وأنك تأمل منهم بمساعدة مالية أو ببطاقة سفر تتيح لك ترك المستنقع حيث تحيا عيشة الكلاب.

نجيب شيء آخر، لماذا؟ لأنه جاء من حيث جئت. من حرب لا علاقة لها بالمبادئ والقناعات. لأنه مثلك، ارتزق على ظهور الناس. اقتنص فرصة عمره كي يثري ويكون أحدًا، شخصية محترمة، اسمًا تهتزّ له الدنيا، سطوة وهيبة وسيارات ونوادٍ ليلية وكازينو وسلطة ونساء ودولارات.

مستوحش يكره البشر ولا يحبّ الاختلاط. ذئب لا يأمن إلا لذاته وإخوته من الذئاب. اختصاصي. محترف. قنّاص مبدع، كما كان الأبرص فنانًا بارعًا بأساليبه في التعذيب، وأنت في صنع الألغام. نوعيات نادرة أصبحت اليوم إلى انقراض. آلهة، بل أنبياء، يقرّرون المصائر، مؤمنون بدعوتهم، ويعملون منفردين مرتفعين عن مصاف الحثالة من البشر والعامّة من الرعاع.

لهذا كلّه أحزنتك رؤية نجيب وما وجدته عليه من كآبة وانكسار. لذلك، استمعتَ إليه مطوّلاً يقصّ عليك خطّته «الجهنّميّة» التي ستنقذكما وتعيدكما إلى ما كنتما عليه من رخاء وبهاء...

ـــ يا أمّي! لقمان!

صــرخت سلام، فـوثب لقمــان إلى المطبخ بعـد أن تناول عصــا والدها المرحوم المعلّقة على جدار في الدار.

مرة أخرى، وجد شـعرها واقفا على رأسها كوبر قطة يصـعقها التيــار الكهربائي، لكنه لم يجد ســارقًا أو معـتديًا كما كـان يتوقّع. كانـت واقفةً عـلى كرسي وسط المطبخ يتلعـثم لسانُهـا بالعـبارات ويداها بالإشارات. الفرن! انظر مـا في الفرن! قالت، فاقتـرب لقمان وانحنى ليرى عـينيه تحدّقـان إليه وتلتمـعان بسوادهمـا الحاد. إنه دائخ من الغاز، قالت، أسرعْ وإلا استعاد وعيه وانقضّ عليك.

ابتسم لقمان. لن يسرع البتّة. سيأخـذ كامل وقته ووقتًا إضافياً إذا اقتـضى الأمر. ها هو جـالس في صينيـة الفرن مسـتعـد أكمل الاستعداد. وها هو لقمان قد نال منه أخيرًا، بعد طول قهر وانتظار.

التفت إلى ســلام وقال: اخرجي من المطبخ وأقـفلي وراءك الباب ثم ضعي أسـفله ما يسدّه ولا تفـتحي إلا إن ناديتُ عليك وأذنتُ لك بالدخول.

سأقفل باب الشرفة قبلاً، أجابت، ثم خرجت .

أهلاً أهلاً، همس لقمان، ثم انحنى يغلق باب الفـرن ويدير مفتاح الغاز على أقوى عيار. انتظر لثـوان، ثمّ قطع الغاز. لن تموت بسرعة يا لئيم. بل على مهل، بتأنٍّ، وكما يجِيد لقمان.

عنّ له أن يشعل النار خـفيفةً، كي يشويه بهـدوء، شيئًا فشـيئًا، حتى يسخن الوبر، ومن بعده الجلد، وصولاً إلى الشرايين والعروق بحيث يتفقّع الواحد تلو الآخر، كطابات الهواء.

يشويه، ثم يطعمه لسلام!

ضحك لقمان. إن شواه في فرنها، غضبت وربما قتلته. هستيريا! هذا اسم جدير بسـلام. هستيريا النظافـة بالذات. ربما هن العوانس تحديدًا من يصبن بذلك النوع من الأمراض.

صـدر عن الفـرن صـوتُ حـفـيفٍ وأظافـر تنزلق على المعـدن والزجاج.

صـحوت؟ سـأل لقـمان. حـسنًا، أيّ موت تـفضّل وأيّة وسـيلة تختار؟ الشواء؟ يا حبّذا، ولكن المسألة صعبة بسبب سلام. ما الذي يتبقّى؟ الذبح أو الطعن. ولم لا يكون لك مـهرجان يليق بك، طالما أنّ الإعدام شنقًا بات دارجًا هذه الأيام؟

أجل. ينبغي له أن يعـطيه كميـة إضافيـة من الغاز تكون كافـية لطرحه تمامًا دون أن تقضي عليه. كيف يعـيّر؟ سيعدّ إلى العشرين. أو ربما أكـثر بقلـيل. حتى يدوخ جـيّـدا فيـتمـكّن من الإمسـاك به والتصرّف به على هواه.

فتح لقمان مفتاح الـغاز على مداه، فانطلقت الرائحة قوية، ثم بدأ العدّ : واحـد، اثنان، ثلاثة، ...عشرون. قطع الغـاز وانتظر لحظة، ثم

فتح الفرن.

كان الجرذ مطروحًا على ظهره ورجلاه في الهواء. التقطه لقمان بذنبه، ثـم رفعه وهزّه : هيـا، افتح عـينيك. لم يتحـرّك. هزّه مزيدًا، بعنف، ثم جعل يخبط بيده على جسـمه : اصحُ يا لئيم. قُم يا حقير. افتح عينيك... لقـد مات الكلب اللئيم الحقير. غـدره ومات. ربح عليه مرة أخرى، بعد عشرات المرات...

قذفـه لقمـان، فطار من يده إلى أرض المطبخ. تبـعه وراح يقـفز فوقه كـالمسعور حتى طحنه تماما بنعليـه وحوّل جثته إلى مـا يشبه أيّ شيء، ما عدا ما يذكّر بأنها لم تك سـوى جثة لجرذ مسكين قتله الغاز، بل أنقذه من انتقام لقمان...

■■■ ■■■

ـــ لقمان، أتيتُك بمفاجأة. انظر من لدينا على الغداء!

لم يكن ينقصــه سوى لوريس كي تكتمل فرحتــه في هذا النهار. أهلاً أهلاً بأم الأبــرص، قــال لقمــان مرحّــبًـا وهو ينهض لملاقاتها. والله زمــان. كيــف حالك؟ دائمًــا أســأل سلام عنــك وعن صحّــتك، ودائمًا تطمئنني وتقول لي : الستّ لوريس على أفضل ما يرام.

لم تُجب لوريس. نظرت حواليــها متوجّسـة كأنما هي تبحث عن وجود أحدهم، أو تخشى مفاجأةً ما.

ما بها؟ سأل لـقمان. فردتّ سلام بأنها ترى أشخـاصًا وهميين جاؤوا خصيصًا لقتلها أو للـضرب والتعذيب، وأن قريبها الذي كان في زيارتها كعادته كل نهار أحد، جعل يدور في البيت كي يثبت لها ألا أحــد في الدار سوانا، حــتى اطمــأنّت وهدأت بعض الشــيء. لذلك ألحّت سلام عليها أن تنزل معها إلى الغداء. فربما أفادتها رؤيتُكَ، أو خفّفتْ عنها غياب الأبرص وشوقها إليه.

أما زالت غــير ناسيــة؟ سأل لقمان. فــأجابت سلام مــستنكرة : لماذا؟ هل نســيــتُ أنا؟ هل نســيتَ أنت؟ فكيــف تريد لأرملة وأمٍّ أن تنسى وحيدها! ما بك يا لقمان؟

حسنًا، حسنًــا، قال لقمان مســتدركاً. لم أقصــد سوءًا. ثم ما بكِ تعنّفينني أمامها وكأنني...

لا تخف، ردّت سلام. فــهي لم تسمــعك ولا رأتك. دائماً ضــائعة ومذهولة وغائبــة. أحيانًا تصحو، فيــعود عقلها إليهــا وأظن أنها قد

رجعت إلى رشدها، إذ تبدأ تطرح عليّ أسئلةً واضحة أو تستفسر عن ذكرى فاتتها أو أي تفصيل.

هل أخذتها إلى طبيب؟ سأل لقمان. جمعية أطباء، أجابت سلام. منهم من قال إنّها صدمة غالبًا ما تقع بعد موت عزيز، وانحاز آخرون إلى مرض يسمّونه الفصام، بينما ادّعى البعض أنه انهيار عصبيّ، أو خرف أو حالة عُصاب... حتى رجتني لوريس أن أكفّ عن تعذيبها وجعلتني أقسم بذكرى الأبرص، أن أتركها في بيتها تعيش ما تبقّى لها من العمر بسلام.

ومعاينات الأطباء وكلفة الدواء وكل المصاريف؟ سأل لقمان متلهّفاً. فضحكت سلام وهي تهزّ برأسها : لا تخف، أصرف عليها من مالها الخاص. لا تنسَ أنها كانت خيّاطة من أشهر الخيّاطات. بحوزتها ما حوّشته خلال عمر بكامله وما كان الأبرص يعطيها على سنوات.

وهو كثير؟ سأل لقمان متنبّهاً. فما التفتت سلام إلى سؤاله، بل صمتت على ارتباك، وانسحبت إلى المطبخ متذرّعةً بضرورة إعداد مائدة الطعام.

لوريس! أتكونين الصيد الذي أبحث عنه منذ زمان، اللقيّة التي أقع عليها مصادفةً، بعد طول حفر وتنقيب؟ هل منك أنت، لا من جيبها الخاص، تتكارم عليّ سلام بالدولارات؟ بالطبع! يا إلهي، ما أغباك يا لقمان! ألم يخطر لك وتتساءل أبدًا، بل كيف غاب عن ذهنك أنّ وظيفة سلام متواضعة بدخلٍ يستحيل أن يكفي كي

تصرف عليك وعلى نفسها وعلى أخيها سليم؟

قام لقمان واقترب من لوريس كي يجلس بجانبها، فأجفلت هذه الأخيرة وابتعدت إلى زاوية في الدار.

نظر إليها يتأمّلها. لو عاش الأبرص وهرم، لكان شبيهًا بلوريس. عيناها الغائرتان، ضآلة قامتها، نحولها وشحوبها، كل هذا يذكّره به.

خطا خطوتين إضافيتين في اتجاهها، فتراجعت إلى الباب. لم الذعر؟ لم تخبّئ رأسها بين ذراعيها كأني أرفع عليها يدًا أو ساطورًا ما؟ ما بك يا أبرص، تُغرم بعانس قبيحة وبخيلة وداهية فوق هذا كله، وتأتي من أم بسيطة العقل، موتورة بلهاء!

ــ هل نسيتني يا سيدة لوريس؟ أنا لقمان! صديق الأبرص، ابنك الوحيد... لا بأس، سأعود إلى الجلوس في مكاني، فارجعي أنت إلى حيث كنت...

جلس لقمان و... جلست لوريس.

أخذت تملّس على ذيل ثوبها فوق الركبتين بحركة رتيبة متواصلة كأنها تكويه، إلى أن رفعت رأسها فجأةً تنظر إلى لقمان و... ابتسمت!

ــ لقمان! أهلاً بك!

لكن، ما لبثت ابتسامتها تلك أن اختفت كي تتحوّل إلى نظرة قلق واسترحام:

ـــ خير، هل أصاب ابني مكروه ما؟

ـــ الأبرص بألف خير، يا سيدة لوريس. سألني أن أحمل إليك السلام كي لا تقلقي وتطمئنّي إليه وتدعي له بالتوفيق...

لقد تذكّرتْه! أخيرًا! لا بدّ وأنها نوبة من نوبات الصحو التي تحدّثت عنها سلام. أجل! ينبغي له اغتنام فرصة وجودهما وحيدين معا، كي يعرض عليها خطة نجيب ويقنعها بضرورة التمويل. حين ذكر نجيب تلك الخطّة أمامه، لم يفكّر في احتمال تنفيذها، لغرابتها أوّلاً ولحاجتها إلى رأسمال. أمّا الآن، بعد أن رأى الرأسمال جالسًا أمامه على بعد خطوات، فلِم لا...؟

ـــ ... فليحفظه الربّ لي. طمرني بالهدايا والأموال. اصرفي يا أمي، يقول لي، عيشي واسعدي؛ يكفي ما صرفته عليّ من سنوات سهر وشقاء فوق آلة الخياطة وبين أقدام الزبونات. أقول له: يكفي يا حبيبي؛ لقد امتلأ البيت بالصناديق والأغراض. بدل القطعة الواحدة، صار عندي قطعتان وأحيانًا أكثر. تلفزيونان وثلاجتان ومسجّلات ومكانس كهربائية ومكاو ومراوح... حتى اضطررت إلى إنزالها وتكديسها في القبو... أسألهُ من أين لك هذا، فيجيب: لقطة، وقعت عليها في السوق بسعر بخس زهيد. يسألني الناس لم لا أرمي الأثاث العتيق، فأضحك في سرّي: لو يعرفون! كي أجَهّز العريس فيتزوّج وينتقل إلى بيته الجديد ويكون له كل ما يحتاج...

... ولماذا لا يختصر لقمان نصف الطريق ويقنع سلام؟ لوريس ليست ضمانة. حتى لو فهمت عليه ووعدته في صحوتها هذه، فما الذي يؤكّد له أنها لن تعاود النسيان وتجعل تعبه عليها، معها، يذهب سدًى وهباءً...

ـ ... ثم خطب سلام، فازداد إلحاحي : ليست خطيبتك ابنة عشرين، وأنا لن أتنازل عن حقي في أحفاد. أفتح على صدري وأدقّ وأدعو له : احفظه يا ربّ، أنت الذي أشفقت عليّ وأعطيتني إياه بعد طول نذور وانتظار. احفظه من أولاد الشر والسوء والحرام. أشفق عليه كما يشفق هو على الأيتام والأرامل والمساكين، فيهتمّ بأمورهم ويوزّع عليهم المعونات والإعاشات... وأنتَ يا لقمان، ألن تعقل مثل صديقك وتجد لك عروسًا بنت حلال؟

بلى! مفتاح لقمان إلى الثروة المقبلة هو سلام المنشغلة حالياً في المطبخ، بإعداد الطعام.

— ٧ —

ــ ماذا جئت تفعل هنا؟ ألا تعرف أن الزيارات ممنوعة في المساء؟

ــ لستُ زائراً. جئتُ أطلب الإذن لنجيب بالخروج، ووافقت المسؤولة. هي التي أمرتني بالانتظار هنا ريثما ينتهي من جمع أغراضه.

ــ أخوك؟

ــ تقريبًا. صديق عزيز.

ــ انتبه. إن خرج، فقد يعود إلى تناول المخدّرات. وإن عاد مدمناً، ذهب إلى السجن مباشرةً لأننا لن نستقبله هنا بعد الآن. أعطيناه فرصة استثنائية حين استبقيناه ومنحناه عملاً. أشفقت مسؤولة المصحّ عليه بعد أن ألحّ ورجا وتوسّل، فعهدت إليه في مهمة التنظيف وجلو الصحون. وأنت، وماذا تعمل؟

ــ تاجر.

ــ تاجر! وفي أي مجال؟

ـــ السيارات.

ـــ حقّاً؟

قال الممرّض ذلك وجعل يتأمّله مليّاً غير مصدّق. خشخش لقمان بمفاتيح سيّارته، سيارة سلام، ثم قال : نسيتُ هاتفي الخلويّ في السيّارة، هل يمكنني الاتّصال؟

نظر إليه الممرّض بشيء من الريبة، ثم أشار إلى هاتف في غرفة زجاجية قائمة قرب الباب، ووقف يستمع إليه كأنه يخضعه لامتحان.

صنع لقمان رقماً وراح يتحدّث بصوت عال : أنهيتَ المعاملات الجمركية؟ حسناً، والجردة؟ من؟ وماذا يريدً؟ لا، لا. السيارات المسروقة ليست اختصاصي. قل له أن يبحث عن تاجر سواي. نحن نعمل بشرفنا ولا نريد مشاكل... سأمرّ بكم غداً باكراً... أجل، أرجأتُ سفري بضعة أيام...

اطمأنّ الممرّض. أجل، اطمأنّ واستراح إلى درجة أنه عرض على لقمان تناول فنجان قهوة أو شيء من المرطّبات.

ـــ قل يا أستاذ، بأي الماركات تنصح؟

ـــ من دون تردّد، المرسيدس! إنها عروس السيارات. متينة واقتصادية وقطعها بخسة ورائجة في السوق. خذها نصيحة لوجه الله.

ـــ وهل تتعاطى بالمستعمَل؟

ـــ وبالجديد أيضاً. لماذا؟ هل في نيتّك الشراء؟

ـــ أجل، لكني أبحث عن شيء نظيف، موديل التسعينات مثلاً.

ـــ وكيف تدفع؟ سأل لقمان، أنا لا أتعامل بالتقسيط.

ـــ أدبّر رأسي، أجابه الممرّض. وضعتُ مبلغاً على حدة.

ـــ من معاشك؟

ـــ أي معاش يا رجل، أتهزأ بي؟ منذ متى تشتري معاشات الدولة سيارات؟ لا. أيام الحرب، لعبتُ بالدولار حين كان يتلاعب على هواه، بيعًا وشراءً، وقال الكريم خذ، فأخذتُ مبلغاً معقولاً من المال... عن إذنك، ينادون عليّ.

حمداً للّه أنه تخلّص من هذا الممرّض الحقير. ما كان ينقص إلا أن يسأله عن هاتفه وعنوانه وعنوان معرضه للسيارات...

ـــ نجيب رجل شهم واللّه! أمير! فقط لو لم تكن به عادة المخدّرات.

هوذا هجوم آخر، فكّر لقمان، لكنه أقل شراسة إذ جاء من شاب يرتدي بيجاما مخطّطة تجعله يبدو كحمار وحشي هارب من حديقة الحيوانات.

قدّم له هذا الأخير سيجارة، فأخذها لقمان شاكرًا بعد أن جلس بقربه في صالة الاستقبال. سمعتُك تقول تاجر سيارات؟ أهلاً بك. أنا أيضاً أعمل في هذا المجال. الحقيقة، كنتُ. هو والدي صاحب الرأسمال. هه، ألا تكون معك ذرّة «أبيض»؟ شمّة هكذا على الماشي. أم أنك ... لا، واضح أنك لا تتعاطى. الحاصل، وما أخبار الخارج؟

تفادياً لطرح أسئلة مماثلة تضطرّه إلى الجواب، قذف إليه لقمان بسؤال : وماذا تفعل في هذا المصح الحكومي، طالما أبوك من أصحاب المعارض والرأسمال؟

أجاب الشاب : لا، لا تخطئ، فأنت هنا في فرع الأغنياء! فرع الذين يدفعون ويكسرون رأس أكبر دولة! ألا ترى النعيم الذي نحن فيه؟ تلفزيون، وصالون استقبال وتدخين ولعب ورق واحترام... الحقيقة، لا ينقصنا إلا الحمام الأبيض... فهمتني؟ ممرّضة أو اثنتان على شيء من الدسم والحلاوة. هكذا، للتلذّذ والاستمتاع.

سأل لقمان ممازحًا : معنى هذا أن هناك فرعين، واحداً للمدمنين الأثرياء وآخر للفقراء؟

قال الشاب وهو يضرب كفّاً بكف : لا حول ولا قوة إلا بالله. ها أنت تخطئ مرة أخرى! بحسب القانون، لا ينبغي لهذا القسم أن يميّز بين فقير وغني، خاصة في ما يتعلّق بأمراض الإدمان، فنحن في مصحّ حكومي، لا؟ ...اسمع، أتعرف ماذا يحصل حين تقبض الدولة على مدمن؟

أجاب لقمان : ترميه في السجن؟

تابع الشاب : عليك نور! بالضبط، تدكّه في السجن مباشرة، لا أطباء ولا من يحزنون. وهناك، يحصل الفرز بين القمح والزؤان. فمن كانت ظهورهم مدعومة أو من كان لهم أهلٌ يملكون الأوراق النقدية الزرقاء، أي الدولار بتعبير آخر، يجلسون عن يمين الدولة ويُنقلون إلى هنا بكل إجلال واحترام. أما البقية، فيُحذفون إلى اليسار ويبقون مرميّين في السجون بين أقدام الحرّاس والزملاء، بانتظار محاكمات تكرّس إقامتهم لشهور أو لسنوات. فهمتَ الآن يا صاح؟

ضحك لقمان. أجل، لقد فهم. هكذا خرج نجيب من السجن إذن. هكذا أقنع المسؤولة بأن تبقيه وتمنحه الإذن بالخروج. وهكذا صرف كلّ ما كان لديه من رأسمال.

نجيب لم يكن مدمناً يوماً على المخدّرات. هذا ما عرفه عنه دائمًا، وهذا ما أكّده له حين التقاه مصادفةً في الزيارة السابقة. فمن كان مثله على هذا الاحتراف، من عمل قنّاصاً لسنوات وأوقع قتلى يُحْصَوْنَ بالعشرات، بل بالمئات، يمارس عن كامل وعي وإدراك ولا يحتاج البتّة إلى أدوية أو مخدّرات...

ـ حسناً، أتركك في أمان الله. لقد حان موعد العشاء. إذا عدتَ للزيارة، فَفَكِّرْ فينا قليلاً، ويكون لك ما يعجب الخاطر ويسرّ المزاج...

ها إني قادم، تابع الشاب ذو البيجاما المخطّطة كحمار وحشي، ثم تقدّم في اتجاه الممرّض الواقف له في الباب.

نظر لقمان إلى ساعته متسائلاً عمّا تراه يؤخّرنجيب. لا بأس، يصرف الوقت في التفرّج على التلفزيون بعد أن انصرف نزلاء المصحّ إلى العشاء وفرغت صالة الاستقبال.

«... من كان مثل هؤلاء ينبغي عزله وإنزال أقصى العقوبات به، وإلا أفسد المجتمع وأجياله الناشئة وعاث فساداً بأخلاق أبنائنا من الشباب...».

ونعْم الأخلاق يا ستّ نضال، أطلق أحدُهم في ظهر لقمان. أجل، فنحنَ شعب لا يحيا من دون أخلاق! نحن شعب يعشق الأخلاق!

لم يلتفت لقمان كي يتحقّق من مصدر الصوت أو يتعرّف إلى صاحبه. بقيت عيناه مسمّرتين في الشاشة الصغيرة، إذ لم تك به أية رغبة في مزيد من الكلام.

تابعت المذيعة ــ «السيّدة نضال» ــ حديثها في موضوع اللواط والشذوذ الجنسي، فوافقها رجل القانون موضحاً أن القانون يعرف جيّدًا كيفية التعامل مع هؤلاء الشاذين المنحلّين الفاسدين الفاجرين، وكيف يُنزل بهم أشدّ العقوبات. هزّ الطبيب الشاب رأسه بحماس، وضربت السيدة «رئيسة مجلس الفكر» الرقم القياسي بآرائها التي تتجاوز كل التوقّعات : السجن المؤبّد، الأشغال الشاقة، أمراض الشذوذ والانحراف الجنسي...

صار عندنا مجلس للفكر يا ناس، أطلق الصوت، وله رئيسة تثبت أن القرد هو في أصل الإنسان...

لِم الزعيق يا حيوان، فكّر لقمان. من أين طلع له هذا المجنون،

ولم لم يذهب برفقة الآخرين إلى العشاء؟ أف، لقد انتهى البرنامج أخَيراً، وها هي نضال تودّع معلنةً عن نشرة الأخبار.

«قتيلان، شاب وأخته في ريعان الشباب... »، قال المذيع.
نوع جديد، موتى من إنتاج عصر السلام، أجابه الصوت.

يا الله! لن ينتهي هذا اليوم على سلام، همس لقمان.

تابع المذيع : كانا عائدين من زيارة في المستشفى لأبيهما المريض. وحين دخلا البيت فاجأ السارق، فأربكاه، فصوّب مسدسه و...

بوم! بوم! أردف الصوت.

لعن الله أباك عند هذا المساء، فكّر لقمان.

دقائق من الإعلان ونعود إليكم، قال المذيع، فظهر مطرب صاعد مصفّف الشعر، يتلوّى ويتمايل، في سهرة تقام كل ليلة سبت حتى الصباح في مطعم فلان...

أجل، هذه هي الأخلاق يا شراميط، علّق الصوت، سهرات تكلّف مبالغ طائلة في مطاعم تحوّلت إلى مواخير. ولماذا؟ للاستماع إلى مطربين ومطربات يغنّون كما أخرى وأبول...

بقي لقمان صامتاً يستمع إلى إعلان ثان يعد التلفزيون فيه المشاهدين بأن البناية التي تقف أبيّة على شّاطئ البحر، تمتاز

بإنجاز فريد لم يسبق له مثيل :

إذ يمكننا إدخال «يختنا» إلى مرأبها وإيقافه فيه، ثم الصعود مباشرةً في ملابس البحر إذا شئنا، إلى «شقتنا» الرائعة التي تتجاوز مساحتها مساحة قصر...

أجل، هذه هي الأخلاق يا قحبة! لعلع الصوت وكأنه لم يزل يتحدّث إلى مذيعة التلفزيون، بناية نركن فيها «يختنا» نحن الذين لم نزل، في الحرب وفي السلام، نحمل مياه الشرب من أسفل بناياتنا إلى طبقاتنا المرتفعة حيث تصيء الحنفيات. هذه هي الأخلاق يا كلاب، سرقات تافهة وجرائم قتل وانحطاط. والله، إن عضو أكبر لوطي في العالم، لأشرف من رؤوسكم يا سفلة، يا منحطين، يا مجرمين...

يضحك لقمان. يفقع من الضحك... لوطي ربما، لكن قبضاي! أجل، اصرخْ قوياً، صِح عالياً، وافتك بهم جميعاً، عن بكرة أبيهم! أجل! إنهم يستحقّون أكثر من هذا بكثير، إنهم...

لا هنا وصل نجيب. ولم يصدّق عينيه حين رأى لقمان يصفّق لمريض يقف على كرسي ويطلق صوته بالشتائم والصراخ.

اخفض صوتك، قال له، ثم سحبه من ذراعه على عجل كي يخرجا قبل أن يفتضح أمرهما فيقع ما لا تُحمْد عقباه.

ـ ٨ ـ

ــ هابيبي لوكمان! آي ميس يو ڤيري ماتش...

أرأيت؟ هذه هي شيوعْيا، قال لقمان لنجيب وهو يدخلها إلى شقته المعتمة المنارة بالشموع. تناول من يدها زجاجة الويسكي وما شرته من أطعمة ومقبّلات، ثم نظر ناحية صديقه يسأل : هه، ما رأيك؟

رأيي؟ أجاب نجيب، اسقني شيئًا يا رجل قبلاً، وأعطيك كل ما تريده من آراء.

دخل لقمان المطبخ وعاد بثلاثة أقداح. صبّ لنفسه كأسًا ولنجيب. أكلت مارينا وأكلا وشربا. وحين انفكّت عقدة لسان نجيب، سأل : منذ متى صرت تعرف لغات؟ ضحك لقمان وهو يرسم بيده حركة بذيئة : بل قل منذ متى يحتاج هذا إلى الكلام؟ أم تراني أمضي الوقت معها في النقاش؟ سألتهما مارينا عمّا يقولان، فلم يجيبا، حتى وقفت منبئةً بأنها شبعت كثيرًا وأنها ستدخل الغرفة كي تتمدّد قليلاً وترتاح.

قام لقمان يجلب شمعًا ويستبدل ما انطفأ وذاب، فسأله نجيب: أبهذا السوء هي الأحوال؟ ليس بعد الآن، أجابه لقمان وهو يخرج

من جيبه رزمة من أوراق المائة دولار. غدًا، أدفع فواتير الكهرباء، أرمي كل هذا الأثاث الذي تراه، أجلب عمّالاً للتنظيف والتصليح والدهان. سوف ترى! بعد أسبوعين على الأكثر، لن تتعرّف إلى هذه الشقة. بالمناسبة، غدًا ننزل السوق معًا ونشتري كل ما نحتاج إليه. نجيب، انتهينا من القرف والحرمان. سنعيد أيام زمان عمّا قريب، سوف نقبر الفقر إن شاء الله.

ابتسم نجيب. كانت أيامًا حلوة، أليس كذلك؟ لو كان الأبرص بعد حيّاً، لاكتمل النصاب. عبس لقمان. لم أقصد، تابع نجيب. معك حق، هو مات ونحنَ حيّان...

لقمان، أتذكُر تلك الليلة التي أمضيناها سوية في قرية... ما كان اسمها؟ ابتسم لقمان. لا يهمّ. منذ متى لم نتسلَّ هكذا. والفتاة؟

نهلة، قال لقمان.

أجل، نهلة! لم أفهم حتى الآن، لِم ماتت.

بل قُل لِم انتحرت، أجابه لقمان.

ماتت أو انتحرت، الأمر سيّان. لا تقل لي إنها كانت بتولاً. كل ما أردناه هو قليل من السلوى، لكن هناك من يحوّل الأفراح دومًا إلى مصائب وأحزان. أليست هي من تبسّمت حين رأتنا وجعلت تغمز وتلمز بالعين والإشارات؟ أليست هي من جاءت إلينا بملء إرادتها ودونما ضغوط أو تهديدات؟ هل أغويناها بمال أو أغريناها بهدايا أو

وعـود؟ وحين بدأنا نتسلّى فعلاً، بدأت تمانع وتلعب لعبة الصدّ والامتناع.

حتى ضربتَها، قال لقمان.

لو لم أفعل، لما أذعنتْ وامتثلتْ وتمكنّا من إشباعها مداعبةً وتقبيلاً و...

وكيّاً بالنار، قاطعه لقمان.

هل تذوّقتَ أبدًا طعم الحلمة حين تُشوى يا لقمان؟ شيء إلهيّ، مذاق نادر، رائحة تصيب القلب وتشمل الوجدان. لم أرد بها شرّاً، صدّقني، وحين غفونا وصحوتُ وسمعت قرقعةً في المطبخ، قلتُ تكرمنا وتعدّ لنا قهوةً أو فطورًا وتعبّر بطريقتها الخاصة عن شكرها والامتنان. القحبة! لم أفكّر أبدًا أنها كانت تبحث في الأدراج عمّا تشنق به نفسها عند الصباح...

أأصدقك القول يا لقمان؟ بحياتي لم أشعر بمثل تلك الرغبة والإثارة والمتعة التي أصابتني ليلتها. حتى اليوم، لم يزل طعم حلمتيها تحت اللسان. هكذا، كنت ألجأ إلى ذكراها، في كل مرة يلمّ بي حزنٌ أو اكتئاب...

■■■ ■■■

مسح لقمان العرق الغزير عن جسمه بفوطة، ثم وقف في النافذة يدخّن سيجارة ويفكّر. ينبغي له أن يجهّز الشقة بمكيّف، وإلا فطس الزبونات من الحرّ واختنقوا...

الزبونات! جميل هذا الكلام. غدًا يضع لائحةً بما ينبغي شراؤه من معدّات وأغراض، ثم يذهب إلى الصحيفة... لا، لم يزل الوقت مبكرًا على الإعلان. ينبغي له قبلاً أن ينتهي من إعداد المكتب، يشترك في مصلحة الهاتف، أو يكلّف سلام بالمعاملة وبشراء خلويّ يحمله معه كوسيلة إقناع إضافية.

لكن، كيف يحدّد أسعار الخدمات؟ على كل حال، سيفرض على زبوناته الدفع بالدولار. لا يريد عملة وطنية. هذا على الأقل أمر مفروغ منه. ينبغي أيضًا للمردود أن يأتي كافيًا بحيث يبقى مربحًا بعد أن يقتسمه مع شريكيه، نجيب وسلام. ولِم لا يأخذ هو النصف طالما أنه يقدّم الشقّة؟ ستجيبه سلام بأنها هي صاحبة الرأسمال، حتى لو كانت لوريس هي مصدر الأموال. اللئيمة، جعلته يوقّع على أوراق ومستندات تضمن حقّها في الرأسمال ونصيبها من الأرباح. لا بأس. يبحث في ذلك لاحقًا، بما أن أمر المحاسبة والموازنة سيوكل إليه. يرشو قليلاً هنا وهناك، فيؤمّن ما طاب له من فواتير ويختلس دون أن...

دخل نجيب الغرفة وجاء يقف قرب لقمان. أخذ منه سيجارة أشعلها واتّكأ على حافة النافذة يدخّن ويقول : كأننا في جهنّم يا رجل، كل هذا الغيم ولا نسمة هواء... لقمان! هناك رجل في الشارع ينظر إلينا.

ـــ لا تخف. إنه حارس البلديّة.

ـــ ومنذ متى عادت بلدية آخر زمان تضع حرّاسًا؟

ـــ منذ عـودة السلام ومنذ رفع أهل الحيّ عـريضةً إلى المخـفر القريب، يشكون فيها حدوث عدة اعتداءات وسرقات.

ترك لقمان الـنافذة واتجه ناحية الكنـبة يجلس فيها. الـتفت إليه نجيب مفكّرًا، ثم قال : بالفعل، مـارينا هذه أكثر من رائعة. كأني لم أنم مع امرأة حقيقية منذ دهر.

ـــ والمسؤولة، أنسيتَها؟

ـــ العياذ باللـه! لو تعرف ما الذي كانت تجبـرني على فعله تلك القحـبة كي تبقـيني في المصح. فلنغيّـر الموضوع... ما الذي يبـقيك صاحيًا حتى الآن؟

ـــ كيف تريدني أن أغـفو ومعي ثلاثة ضيـوف في السرير، أنت ومارينا وشخيرك الذي ترتجّ له الجدران؟

ابتـسم نجـيب : لا بأس، ادخل ونم إذا أردت، أنا سـأبـقى هنا وربما تمددتُ على الكنبة إن غلبني النعاس.

في رأس لقـمـان سؤال مـا انفكّ يراوده منذ التـقـاه : قل لي يا نجيب، مـا الذي أوصلك إلى ذلك المصحّ، إن كنتَ فـعلاً لا تتـعاطى

المخدّرات؟

ـ تهمة الإدمان لأنها أخفّ عقوبةً من تهمة الاتّجار. حين انتهت الحرب، قلتُ لنفسي أنا الذي لم أتقن سوى مهنة القنّاص، أتعلّم حرفة جديدة. هكذا وقعتُ على تاجر كبير أقنعني وبدأتُ.

ـ وكيف قبضوا عليك ؟

ـ كنتُ في زيارة بيع وشراء. دوهم المنزل وصرتُ في لحظة في السجن. لو لم يكن ذلك التاجر رأسًا كبيرًا، أعني لو لم يكن له أصدقاء في الحكومة، لكنت الآن أحصي نجوم الظهر. هو الذي رتّب المسائل ونقل التهمة من اتّجار إلى إدمان. ثم توسّط لي، فنُقلت إلى المصحّ و... البقية تعرفها، لا؟

هزّ لقمان رأسه. أجل البقية يعرفها، لكن تبقى مسألة أخيرة تحتاج إلى توضيح : ها إني قد وثقت بك يا نجيب، فدبّرتُ الرأسمال وقدمتُ شقتي مكتبًا وجعلتك شريكًا لي ولسلام. ألا تعتقد أن عليك أن تقابلني بشيء من الإيضاح، فتشرح لي من أين جمعت كل هذا العلم وأنت معزول بين المرضى والمجانين؟

قال نجيب : منه هو جاءني كل هذا العلم...

حين وصولي إلى المصحّ، كان مقيمًا فيه منذ سنوات. كان الأكثر شهرةً بين المرضى، وكان الجميع يلقّبه بأينشتاين. أخبروني قصته وكيف كان يدفع للأولاد كي يأتوه بها. يجمعها ويعمل عليها، حتى تحوّلت شقته معملاً يضخّ الجرذان. اشتكى عليه أهل البناية،

فجاءت الشرطة. وحين رأت ما هو عليه من كهولة وعلم وأصول، نقلوه إلى المصح العقلي.

هكذا التقيتُه. ثم جعلتُ أتقرّب منه بعد أن عرفت أنه فقد أولاده في الحرب ورأيت سنّه المتقدّمة. إذن لا وريث، قلتُ لنفسي، لم لا ألعب دور الابن طالما أنه ألفني وأمن لي. ثم حين فهمت أنه لا يؤَخذ بوصية مجنون أو مختلّ عقلي، كنتُ قد تعرّفتُ به جيّدًا وصارت بيننا صداقة وخبز وملح.

يرجوني أن أجمع له بعضًا منها، فأفعل. ويدفع لي. مطبخ المصحّ مليء بها وأنا أكاد أموت من سأمي. وهو عجوز مملوء بأخبار عجيبة يقف لها شعر الرأس.

ظلّ يردّد أن الجرذان هي التي صنعت الحرب، حتى أقنعني. كأنني لم أكن على صلة أو على معرفة بكل ما حدث وصار. كأني من تلك الحرب كنت براء. أجل، أردّد معه : هي الجرذان التي صنعت الحرب ودمّرت حيواتنا. لولاها، لكنتُ اليوم مزارعًا أو أستاذًا وديعًا مع زوجة وأولاد...

لا أعرف كيف أشرح لك، يا لقمان. صدّقتُه. أقنعني. ربما لأن كلامه ذاك منحني صك براءتي، فصرتُ في أوقات استراحتي، أروح إليه وأستمع لهذيانه خلال ساعات.

وأين هو اليوم، سأل لقمان.

توفّي، أجاب نجيب. بعثت المسؤولة في طلبي وقالت إنه أصيب بنوع من التسمّم وإنه، فيما كانت الرغوة تفور من فمه وهو يصارع الموت، كان ممسكًا بدفترين شدّهما إلى صدره بقوة كمن يتشبّث بخشبة خلاص. وعندما اجتمعوا عليه محاولين نزعهما من يديه بالقوة لدى وصول الطبيب، شدّ المسؤولة نحوه كي يهمس في أذنها كلمتين اثنتين : أعطيهما لنجيب.

لم تفهم المسؤولة ولا أنا فهمت. وحين جعلنا نقلّب الصفحات، فهمنا أنه قد دوّن فيهما كل ما جمع عن الجرذان من معلومات.

ضحكت المسؤولة وقالت لي : مبروك عليك، هذه تركتك من أينشتاين.

لم أضحك أنا. أخذتُ الدفترين السميكين بشيء من الوجل والاحترام ــ نكايةً بها ــ ثم خرجتُ من عندها وأنا أنوي رميهما. لا أعرف ما الذي أوقفني عن هذا الفعل. ربما هو كلامه الدائم عن أن الجرذان هي التي صنعت الحرب، هذيانه الذي جعلني أتصوّر للحظة عابرة، أن من قضيتُ عليهم لم يكونوا سوى من الحيوان، أو هو افتكاره بي كابن حبيب في آخر لحظة قبل أن تفارقه الأنفاس...

وقف نجيب ثم غادر الغرفة لثوان، ليعود بالدفترين. ها هما. أخذهما لقمان بين يديه. مجلّدان بجلْد أسود والورق على سماكة ومملوء بخط منمّق جميل.

أبو عبدو البغل

ما كلّ هذه الرموز الأجنبية والرسوم، سأل لقمان.

https://facebook.com/groups/abuab/

لا تقرأ سوى الدفتر الأوّل، ردّ نجيب، فـفيه دوّن بالعربية كل ما راقبه عن الجرذان من سلوك وتصـرفات وعادات وأوصاف. الثاني يحتوي على عبارات أجنبية لأنه يتضمّن معادلات كيميائية، وصفات وإرشادات حـول سبل مكافحتـها، بالإضافـة إلى لوائح تعدّد أنواع الفخاخ والأمراض والسموم والمواد والجراثيم...

استـأذن نجيب ودخل غرفـة النوم كي يستريح، ذلك أنه مـتعب بعد هذا النهار الطويل.

■■■ ■■■

بالرغم من تقدّم الليل، لم تزل عينا لقمان تصارعان النعاس. هكذا هو لقمان. حين يغفو أحد بجانبه أو في فضائه الحيوي، يستعصي عليه الرقاد. وكأن النوم كمية محدّدة ومعيّرة من الأوكسيجين التي يحتاج إليها نعاسُه كي يحيا. فإذا استهلكها أحد سواه، قضى عليه وحرم لقمان من نصيبه من النوم بحيث يُصاب بالأرق والسهاد.

أنار لقمان شمعةً إضافيةً، ثم رفع الدفتر ليكون على مقربة من النور. أشعل سيجارة بعد أن تمدّد على ظهره، وراح يقرأ :

على الأرض جرذ مقابل كل إنسان. لكن في بلادنا وعلى إثر الحرب، أقدّر عددها بعشرين. وهي على نوعين :

ـــ Rattus rattus : ويُعرف أيضًا بالجرذ الأسود أو المنزليّ. أصله من الشرق الأقصى. قدم إلى الشرق الأوسط بسبب عمليات التبادل التجاري. أينما حلّ، حمل معه الطاعون. يحيا لثلاث سنوات أو أربع. يعشّش في الأماكن المرتفعة من المساكن. يأكل اللحم، لكنه يفضل الفواكه والخضر.

ـــ Surmulot ou rattus norvegicus : ويُعرف بالنروجي نسبةً إلى البلاد حيث لوحظ وجوده لأول مرة، الرمادي أو المهاجر. إنه أكبر حجمًا من الأول وأكثر شراسة. ليليّ النشاط. يحيا مختبئًا تحت الأرض، في الأقنية والمجارير وكل أنواع الأمكنة والمناخات. يقتات من الجثث، الآدمية والحيوانية، من النبات والفرائس الحية الصغيرة ويقرض كل شيء كي يجد قوته، حتى المعادن والورق

والكاوتشوك والقماش. ذَكَره عنيف. يقوم بمعارك ضارية ويأكل بعضه بعضًا إذا جاع. يثب القوي على الضعيف، يفتح جمجمته، يأكل الدماغ ثم يأتي على الجسم وبقية الأعضاء. إنه النوع الأقوى والأخطر والأكثر انتشارًا، وهو يقضي على الأسود.

رفع لقمان عينيه عن الدفتر. ذاك الذي رآه في طاقة الحمّام، من أي نوع كان؟ والآخر الذي كان مضطجعًا في فرن سلام؟ في مطلق الأحوال، لو جازت المقارنة بين الجرذان والناس، لكان هو والأبرص ونجيب من الصنف النروجي الممتاز.

الجرذ حاضر في كل بقاع الأرض، يحبّ المناخات المعتدلة، المساكن الآمنة والطعام الغزير. له طاقة هائلة على الصراع من أجل البقاء ومزاج الرحالة والمسافرين...

يبلغ جنسياً بعد شهرين من ولادته. يجامع في كل المواسم، كل الإناث، وهو كثير التناسل إذ تحمل أنثاه أكثر من عشر مرات في العام خلال ٢٠ يومًا، وتضع في كلّ مرّة حتى عشرين صغيرًا...

هذا كلام! يضاجع في كل المواسم وكل الإناث! أرأيتَ يا «زميل»؟ لو كنتُ جرذاً لما تعطّلنا أبدًا ولوجدتُ لك في كل يوم عروسًا تليق بك. بل لكنتُ الزعيم ولجعلتُ كل الإناث في حريم لي ولك.

الجرذ هو الأكثر تدميرًا وأكلاً وتناسلاً. لا يقتل إذا جاع فقط، بل أيضًا وخاصة من أجل متعة التدمير. يأكل ولا يستطيع التقيؤ.

سُمّي قارضاً لأنّ أسنانه تنمو من دون توقّف، لذلك يعضّ ويقرض ويحفر بها باستمرار كي يوقف نموها. يقع من على ارتفاع كبير ولا يصاب بشيء. يقفز حتى علوّ متر وأكثر. إذا حُشِر، أصبح شرسًا وربما قفز وعض وأثخن بالجراح.

ذاكرته مخيفة. يتناقل المعلومات حول سمّ معيّن مثلاً، من جيل إلى جيل. ساكن المدينة أكثر دهاءً من ساكن الريف، لأنه اكتسبت خبرةً أكبر.

كائن ليلي، وإذا ما ظهر في وضح النهار، فهذا معناه أن عدده أصبح هائلاً وأنه يفتقر من ثمّ إلى كمية كافية من الغذاء. في تنقّله، يحاذي الجدران لأن بصره ضعيف، هكذا يأمن جانبًا من الخطر. ويتبع دومًا الدرب نفسها.

يحيا في مجموعات أو قبائل، لكنه يتمتّع بشعور فردي كبير. إن شعر بالخطر، أصبح قادرًا على تنظيم جيوش وإطلاق جحافل تفوق بوحشيتها كل ما روي عن البرابرة والتتار. وقد تهاجم القبيلة أفراد جنسها أحيانًا، فتقتل وتفتك ولا ينجو الصغار أو الإناث من تلك المعارك الضارية والحروب.

خطاياه الأساسية أربع، وليست سبعًا كخطايا الإنسان، بما أنه يجهل الكسل والحسد والكبرياء ويتميّز بالجشع والشبق والطمع والغضب.

يتمتّع بحس وطني عالٍ وهو يمتاز بكراهية عالية للأجانب

والأغـراب، حـتى لو كـانوا من بني جنسـه. إذا دخـل غـريب على مجمـوعة، تُرك يجول لحين، إلى أن يوغل في الدخول بعـد شعوره بالأمـان، حينهـا تجتـمع القبـيلة من حـوله جاحظة الأعين، مطلقـة أصواتًا حادة رفيعة تمزّق الألباب، وصولاً إلى الانقضاض والتمزيق والافتراس.

نوعان من الكائنات الحيـة فقط يصنعان حروبًا ضد جنسـهما : الجرذ والإنسـان. والاثنان لا ينفعان أيّاً من الكائنات الحـية الأخرى ويدمّران كل أشكال الحياة...

لم يبقَ في جعبـة الشمعة الأخيرة التي أنارها لقـمان ذرّة حياة. مال فتيلهـا قليلاً، ثم ارتعش لثوان بشعلة أخيرة قـبل أن يقع غريقاً في مستنقع الشمع الذائب الذي سـال ليتجمّد فوق المنضدة الصغيرة حيث ألقى لقمان الدفتر من يديه بعد أن سادت العتمة وأشارت إليه ساعتُه الداخلية أن الصباح بات على مقربة خطوات.

ـ ٩ ـ

قلقت سلام.

ليس من عادة المدير أن يستدعيها إلى مكتبه. من عادته أن يستدعي بقية العاملات في السنترال، الشابات منهن خصيصًا والجميلات، عازبات كنّ أم متزوّجات. وحين تدخل إحداهن إليه، تقوم الأخريات بضبط الساعة، ثم يبدأن الهمس واللمز والغمز، إلى أن تخرج التي وقعت عليها القرعة، فيتحلّقن حولها وينتشر الضحك والنكات.

سوّت سلام تنوّرتها، ثم اتّجهت بشيء من الكبرياء إلى مكتب المدير وهي تنظر إلى الأخريات مواربة كأن ساعتها دقّت أخيرًا، بعد طول صبر ومعاناة. قرعت الباب، فأُذن لها بالدخول. دخلت وبقيت واقفة، فقام المدير إليها يحيّي بحماس وترحيب، يدعوها إلى الجلوس ويجلس قبالتها مستغنيًا عن الرسميات.

استراحت سلام.

بعد أن جعل المدير يعزم عليها أن تشعل سيجارة أو تشرب شيئًا باردًا أو حارًا، فيما هو ينظر إلى ركبتيها التي انحسر ذيل

التنورة عنهما بعينين تلتمعان بمياه الشهوة والظنون. حين أصرّت على الرفض، تبسّم ثم استلقى بظهره على المقعد وقال : أنت أقدم الموظّفات يا سيّدة سلام، فأرجو أن تكوني فرحة بالبقاء بيننا كما نحن بك فرحون...

ماذا يجول في رأسه، تساءلت سلام. هل تذكّرها أخيرًا بعد أن مرّت به كل الفتيات وضجر منهن، أم هل في نيته خطة ما؟ في مطلق الأحوال، هذه الزيارة المفاجئة كسبٌ لها أيًا كان غرضه. فهي حين ستخرج، ستتصرّف تمامًا كما كنّ يفعلن. ستمشي ببطء، بغنج ودلال، تميل برأسها وتنفض شعرها إلى الوراء. لا شعر تنفضه، لا بأس. تجد حركة أخرى لا تقلّ غموضًا وإيحاءً عن تلك، وترفقها بتنهُّدة من نوع الأنين المختلط بشيء من المواء...

بعد كلام من هنا وهناك من باب المسايرة والحديث العام، قال المدير : أنت يا آنسة سلام، أجدر الموظّفات وأكثرهن خبرة على الإطلاق. لذلك، وبعد طول تفكير وتمحيص، قررتُ تعيينك مسؤولةً عنهنّ. بالطبع، هذا معناه زيادة في الأجر والقدر والمقام، ولكن في المسؤولية أيضًا والواجبات...

استاءت سلام.

واستغربت كيف أنها بدل أن تقفز فرحًا، شعرت بالدماء تعلو فيها وتحتقن في الرأس والأذنين. والمسؤولة الأخرى؟ سألت بشيء من الانفعال وهي تعرف أن سؤالها هذا لا يأتي عن قلق أو وجع ضمير، بل عن حاجة ماسة إلى التمسُّك بخشبة خلاص قبل الغرق

مزيدًا في انفعالها ذاك.

مسكينة، أجاب المدير. لا أدري ما الذي دهى عقلها كي تقوم بدفع شيكات من دون رصيد. اليوم بالذات، أُبلغتُ أنها أصبحت في يد النيابة بانتظار إجراء مزيد من التحقيقات. لا أدري ما الذي يصيب الجميع. الأسبوع الفائت، جاءت الشرطة صباحًا كي تقبض على جاري موظف البنك. اختلاس! ما عاد أحد يقنع بنصيبه. ماذا كانت تشكو وهي موظفة دولة براتب محترم ووظيفة مؤبّدة؟ هل تعتقدين أنها كانت ترتدي ما ترتديه وتصرف ما تصرفه من راتبها فقط؟ أنا لا أقصد سوءًا بهذا الكلام، ما أعنيه هو أني كنتُ أغضّ النظر عمّا كانت تتقاضاه جانبيًا من هدايا ورشوات .

فهمت سلام.

ما يعرضه عليها المدير : أن تلعب دور الجاسوس على الأخريات، تغشّ في أسعار المكالمات وتطالب بمبالغ إضافية بهدف تسهيل المعاملات. والغلّة؟ تتقاسمها بالطبع معه، كلّ بحسب موقعه وأهمية رتبته.

ابتسم المدير وقال مغازلاً : لا شيء يقتلني بمثل ما يفعل الذكاء. ثم مدّ يده مصافحًا ومهنّئًا ومشجّعًا على مزيد من التعاون والنجاح.

استدارت سلام قبل أن تخرج من باب المكتب وقالت : والدة خطيبي الذي توفّي رحمه الله، لا معيل لها سواي و...

فهـمت، أجاب المدير. باسـتطاعتك الانصراف مـا بعد الظهـيرة. اليوم، تعـملين نصف دوام . هذه هديتي لك وتعبير عن أملي الـكبير بشراكتنا التي أرجوها مثمرة، مبنية على الإخلاص.

■■■ ■■■

وقفت سلام أمام محل السندويشات وطلبت : شاورما، فلافل ودجاج... مع كثير من الثوم، لو سمحت!

من غيظهـا، ستأكل. ستمضغ وتلوك وتبلع وتشـرب و... حتّى تغصّ، إذ ربما هدّأ من روعهـا الطعـام. الحيـوانات! الرجـال كلهم حيوانات! أغبياء ومغرورون ومقرفون وكالديكة يتبخترون من دون عقـول. ما إن يروا إليـةً أو ساقاً أو قـطعة من اللحم العـاري، حتى يفتحوا أفواههم، تتسارع أنفاسهم وتتدلى ألسنتهم كالكلاب الجائعة الهائجة التي تثب على أي شيء.

والنساء؟ قـحاب! كلّهن من دون استثناء! وهي، ما الـذي تفعله في هذا العالم الفـاسد الحقير؟ امـرأة مثلها تستـحقّ أفضل الرجال، أفضلهم والـله! تبّا لك يا أبرص، هل كـان من الضروري أن تموت؟ أمـا كان في إمكـانك أن تتزوّجني قـبـلاً، تضع في إصـبعي خـاتم الزواج، ثم تنصرف إلى سابع أرض لو شـئت. أرملة وحيدة أليست أفضل من عـانس لا يلتفت إليها الرجـال؟ وذاك الحقير لقـمان، ذلك المنتفع، المادي الوضـيع! كأنه لم يكن ينقصـني إلا المدير، كي تكتمل فرحـتي بكل من حولي من ذكـور. ليتكم تموتون جمـيعًـا، فأبكيكم وأعلن عليكم أبدًا الحداد.

الى محلّ دفن الموتى، وصلت سلام.

لم يكُ العجوز وحيـدًا، ففضّلت الانتظار في الخارج على أمل ألا يطيل مع الزبون. اتّكأت على سيارة متوقفّة بالجوار، بحيث أصبح العجوز وزبونه في مرمى نظرها، عبر الزجاج.

تراهما يتناقشان. يجولان على مهل بين التوابيت، يتوقّفان لثوان، ثم يتابعان جولتهما. ملامح العجوز بدأت تنمّ عن شيء من الكراهية والحنق. ابتسمت سلام. لا بدّ أن الزبون يناقشه في الأسعار. ها هما يتراجعان إلى عمق المحل، ممّا يعني أنهما يتراجعان في القيمة والأسعار. موديلات الباب الأول أو الصنف الممتاز، موضوعة في واجهة المحل قرب الباب. الموديلات القديمة أو البخسة الأسعار، مرصوفة في العمق.

يحكّ الزبون رأسه ويعرق. الحرج باد عليه. حرج ممزوج بشيء من الحياء أو الارتباك، كأنما العجوز يخاطبه بكل احتقار، يعنّفه وينعته بأحطّ الصفات.

زعق بوق في ظهر سلام، فأجفلت واستدارت إلى السيارة العابرة بسرعة صاروخ، تكيل لسائقها السِّباب بالأطنان. التفتت إلى الحانوت، فرأت العجوز وحيدًا يشتم بلغته الأم.

تفضّل مدام سلام، قال لها، ما هذا الأيام؟ تريد (الزبون) تابوتًا لا تكلّفها مالاً! فلتشتري من عند غيري، أنا لستُ جمعية خيرية! الأسبوع الماضي، جاءتني زبون تطلب أن أؤجّرها تابوتًا، قالت لي : آخذه لأربع وعشرين ساعة، وبعد انتهاء مراسم الدفن، أعيده لك... معقول؟ خلص، لم يعد للموت حرمة في هذه البلاد. يضعونهم في توابيت مصنوع من أخشاب صناديق الخضر، ثم هوب! إلى التربة. لا مراسم دفن ولا تعازي ولا من يحزنون. ماذا تنتظر من شعب لم يعد يحزن على موتاه، هه؟ وماذا تتأمّل من بلد يصرف مبالغ على أمور تافهة ويستخسر الدفع كي يكون لحزنه مظهر هيبة وجلال؟

عفوًا مدام سلام، تفضّل ارتاح. هل تريد قهوة أو شاي؟

شكرت سلام العجوز الأرمني على فنجان القهوة، ثم دفعت ثمن اللوحة النحاسية التي كانت قد أوصته عليها. وفيما هي تهمّ بالخروج، قال لها : إذا كنتَ تريد أن أعلّق لك في واجهتي إعلانًا عن شركتكَ هذه، فأهلاً وسهلاً بك.

شكرته سلام وخرجت إلى الشارع، فتبعها يقول : وضعتُ البراغي في ورقة صغيرة وألصقتها بقفا اللوحة، فانتبه أن تقع منك مدام...

■■■ ■■■

قال الناطور بلكنته الغريبة :

ـــ الكهرباء مقطوعة والموتور عطلان، لكن لقمان موجود. منذ قليل وصل زميله... يا إلهي، ما اسمه؟

فكّرت سلام : يا إلهي، سبع طبقات! والعتمة التي في الدرج والجرذان!

نظر إليها الناطور وكأنه قرأ أفكارها فقال : عدنان، خذ المصباح ورافق السيّدة إلى فوق.

لم تشكره سلام بالرغم من أنه دعاها «سيّدة»، هو الذي بات يسمّي سكّان البناية بأسمائهم الصغيرة دون أن يضيف لقب سيّد أو أستاذ. ولم تشكره وهي تعرف أن ابن الناطور ــ أبي عدنان طالما أن اسم ابنه عدنان ــ إنما سيصطحبها في صعودها إلى شقة لقمان، منتظرًا منها أن تعطيه أجرته، كما لو كان سائقًا عموميًا يوصل الركّاب.

ضربت الباب بقبضة يدها وصدرها يكاد ينخلع من اللهاث. انتظرت ثوانيَ، وحين لم يأتها جواب، خبطت بقدميها بأقصى ما أوتيت من قوَة.

فتح لقمان بملامح مكفهرّة وبلسان سينطلق بالسباب، لولا أنه فوجئ بملامح سلام التي أضناها الحرّ والإعياء فتحوّلت إلى لون ليلكي على

شيء من الاخضرار، فزادها العرق قباحةً وسوءَ تناسقٍ في التعبير.

آسف لم أسمع قال، ثم أدخلها وهو ينظر إلى ما في يدها من غرض مغلّف بالأوراق. ما هذا، سألها، فمدّت إليه اللوحة وقالت : هدية ! ابتسم لقمان وأسرع يقطع الحبل ويمزّق اللفافات الورقية، لكنه ما لبث أن خاب حين اكتشف اللوحة النحاسية. وكي يواري ردّة فعله هذه من أمام عينيها المبحلقتين، استدار ينادي : نجيب! تعال وانظر ما حملته إلينا سلام.

خرج نجيب من غرفة المكتب بملامح متعبة وثياب متسخة. لم تكن سلام قد رأته هكذا من قبل، فنظرت إليه مستغربة حتى قال موضحًا : ثياب العمل. عدتُ تواً من مهمة في مستودع مخزن تجاري كبير.

إذن الأعمال تسير على خير ما يرام، قالت مستفسرةً، فردّ لقمان مستدركًا : لا تتسرّعي يا سلام، هو طلب جاءنا بعد أسابيع من الانتظار.

لا تخف، سيتصلون، ردّت. في البلد جرذان أكثر ممّا هنالك ناس. سترى!

أخذ نجيب اللوحة النحاسية من يدها وقرأ :

شركة

S.L. N

لإبادة الجرذان

ثم قال : ما معنى هذا الاسم؟

قالت سلام : هي الأحرف الأولى من أسمائنا نحن الثلاثة.

قال نجيب : ولِم وضعتِ الاسم بالأجنبي؟

قالت سلام : لأنه يبدو أكثر جدية.

قال لقمان : ولِم لم تسمّيها .L.S.N مثلاً؟

قال نجيب : كبّر عقلك يا رجل!

قال لقمان : ما بالكما ما عدتما تميّزان بين الجدّ والمزاح؟

قالت سلام : أقسم بشرفي أنك لا تمزح وأنك غاضب لأني لم أضع حرف اسمك في المرتبة الأولى !

قال لقمان : أولاً، اخفضي صوتك.

قالت سلام : وثانيًا؟

قال لقمان : وثانيًا، لا تتلاعبي عليّ لأن نواياك واضحة مثل عين

الشمس !

قالت سلام : نواياي؟ وما هي نواياي؟

قال لقمان : إفهامنا نحن الاثنين بأنك أنت صاحبة الشركة وبأننا عندك موظفان! تذكّري من أين جاء الرأسمال يا سلام، ولا تجبريني على كشف كل الأوراق!

قالت سلام : هذا بدل أن تشكرني على كل ما فعلت وأفعل من أجلك يا لقمان؟

قال لقمان : لا تلعبي دور المظلومة أمامه! لو لم تكن لك مصلحة، لكنت تركت الكلاب تنهشني حيّاً. أتظنين أن كلامك على الشرف والأَصول والأخلاق ينطلي عليّ؟

قالت سلام : معك كل الحق. أنا من تستأهل أكثر من هذا بكثير. لكن اعرف شيئًا واحدًا يا لقمان، سلام تغيّرت والزمن الأوّل تحوّل!

قال لقمان : لا تتهدّدي ولا تتوعّدي. انتهينا. اعتبري الشركة محلولة منذ الآن!

قالت سلام : أتظنني غبية أم بلهاء؟ أتظن أني لم أفهم لعبتك؟ الآن، تريد حلّ الشركة؟ وبعد ماذا؟ بعد أن استوليتَ على المال وصرفنا ما صرفنا في شراء رخصة ومعدات، في تجديد شقتّك ودفع إيجارك وفواتيرك المتأخرة منذ أكثر من عام؟ هل نسيت أنك منذ أشهر تعيش على الشمع؟ هل نسيت أنك كنتَ مهددًا بالطرد من هذه الشقة؟ هل...

قال لقمان : أشهد ألا إله إلا الله! سلام! دعي النهار يمرّ على خير وإلا...

قالت سلام : وإلا ماذا يا لقمان؟ هه؟ قل وإلا ماذا؟

رنّ الهاتف، فتحيّن لقمان هذه الفرصة كي ينسحب من هذا النقاش ويدخل غرفة المكتب.

قال نجيب : حصل خير يا ستّ سلام. نحن جميعًا متعبون.

قالت سلام : أنت وأنا متعبان، أجل. أما هو، فما الذي يتعبه؟ هل يمكنك أن تشرح لي ما الذي يفعله الأستاذ لقمان طول النهار؟ يجلس وراء مكتبه بانتظار المكالمات؟ إذا كان المكتب ضروريا لاستقبال مكالمات هاتفية فقط، فما كانت حاجة كل المصاريف التي راحت في ترميم الشقة وتجديد الأثاث؟ الحقيقة أنه يهزأ بك وبي. يجلس في هواء المكيّف مستريحًا، يطلب الأكل جاهزًا ويلعب بالورق. بالفعل، هذا أمر متعب جداً، بل قل إنّه يهدّ !

عاد لقمان إلى ردهة الاستقبال عابسًا وفي يده ورقة صغيرة دوّن عليها عنوانًا ما، ثم قال متوجّهًا بكلامه إلى نجيب : هذا زبون اتصل. يودّنا أن نأتي إلى شقته للكشف والمعاينة.

قال نجيب : الآن؟ لقد عدتُ منذ قليل و...

قال لقمان : أنا سأذهب. أرى ما هي المشكلة بالضبط، ثم أدرس

العملية وأشرح له الكلفة وأعود. إن وافق على المبلغ، ذهبنا إليه غدًا معًا.

قال نجيب : ومن يبقى في المكتب؟

قال لقمان : لا تشغل بالك. غدًا نتباحث في الأمر. الحلّ في هاتف خلويّ نحمله معنا خلال تنقلاتنا.

قالت سلام : وهل تدري ما كلفته؟ حوالى ألف دولار يا سيد لقمان!

لم يجبها. بل إنه لم ينظر إليها. كأنها حشرة. كرسي. جماد. قال شيئًا في اتّجاه نجيب، ثم ذهب ناحية المدخل، وضع عليه السترة المعلّقة فوق المشجب. خرج وصفق وراءه الباب.

بقي نجيب واقفًا في وسط الغرفة ينظر إلى سلام التي راحت من غيظها تلوّح بيديها أمام وجهها المحتقن بالدماء. همس بأنه ينبغي إلغاء المكيّف طالما أن الكهرباء تنقطع في النهار لتعود ليلاً، وأن الحلّ ربما في شراء مولّد كهربائي مستقلّ. وحين رآها على حنقها وغضبها، أضاف : سيصبح الحرّ قاتلاً إن استمرّ الطقس عابسًا وغائمًا على هذه الحال.

نظرت إليه سلام وكأنها تذكّرته فجأةً وقالت : متى يعود لقمان؟ فأجابها أنه حين يكون في المكتب، أي نجيب، يأخذ لقمان راحته في الغياب. رفعت سلام حاجبيها. لا بأس فكّرت، ها هو يفهمها ضمنًا أنه منحاز إلى جانبها في حربها مع لقمان. وهل يتأخّر كثيرًا سألت، فردّ نجيب : الأمر متوقّف على زيارته لمارينا أم لا. مارينا؟

صرخت سلام وكأن ثعبانًا لسعها، ومن تكون مارينا هذه؟

ارتبك نجيب فسارع يقول مستدركًا : لا أعرف... أنا لم أقل شيئًا... لو علم لقمان بأني ذكرت اسمها أمامك، لقتلني... إن أخبرتُك من تكون، فهل تعدينني بأنك لن تفشي السرّ؟

بعد أن أخبرها عمّا هو أمر لقمان مع مارينا تلك، وقفت سلام واتجهت إلى النافذة تطلب مزيدًا من الأوكسيجين. نظر نجيب في ظهرها وارتسمت شبه ابتسامة في زاوية فمه ما لبثت أن تحوّلت إلى تفكير وعبوس حين استدرات وراحت تحملق وكأنها كشفت مصادفةً الخيط الذي سيوصلها إلى كنز ثمين.

لا تحتاج سلام إلى شرح مبين كي تفهم أن لقمان ليس المقصود ولا المدعوة مارينا، بل أن وراء رأس نجيب فكرة أو خطة ما. ولا يحتاج نجيب إلى مزيد من الكلام كي يتيقّن من أن صنارته قد أصابت الهدف وأنه يكفي أن يحرّكها بعدُ قليلاً، كي تبتلعها هذه العانس المحشوّة بالدولارات. ليس أسهل من إصابة امرأة حين تكون مغرمة، برصاصة مسمومة بغيرة النساء. وليس أسهل من إغراء سلام التي تبعط رغبتُها فيها كسمكة رمتها الأمواج على الرمال.

فتح نجيب أزرار قميصه على مهل، ثم قال وهو يحكّ الشعر الكثيف المتشابك فوق صدره : اعذريني، سأدخل لآخذ حمّام.

ابتلعت سلام اللعاب الذي تجمّع أسفل فمها فجأةً حين رأت صدره العاري، وتحرّكت كأنها تهمّ بالانصراف، فأمسكها من

ذراعها يوقفها ويصبّ في عينيها نظراته المشبعة بالإيحاء. أمسك بيدها ووضعها على صدره، وراح يضخّ سُمّا سرى في أوصالها وجعلها ترتعش وتنتفض كطير مذبوح.

أخذها إلى الحمّام، ثم جلس في المغطس وطلب إليها أن تتناول الصابونة في يدها وتمرّرها على كامل الجسم. امتثلت سلام. ثم جعلت تدلك بالرغوة أعضاءه على مهل، بتأنّ وعناية وخشوع، كأنما هي تأخذ الوقت في تفحّصها ومعاينتها والتعرّف إليها، جزءًا وراء جزء.

حين أوقفها في وسط الغرفة وساطها بحزامه الجلدي على ظهرها وقفاها وفخذيها وأطرافها والثديين والوجه، لم تصرخ. بل إنّها لم تئنّ. تلوّت قليلاً كأنما يد رقيقة تداعبها بحنان، وما هالها أبدًا أن ترى خيوطًا حمراء ليلكية ترتسم على بدنها، وما أجفلتها يدُه التي امتدّت إلى الشعر كي تحني الرأس وتجبرها على الركوع.

ازداد نجيب هياجًا حين رآها تزداد خنوعًا، فكافأها بأن رماها على الأرض وتكوّم فوقها فيما راح يدقّ رأسها بالأرض وهو يبصق عليها ويقوّي متعته بأبذإ الكلام...

سلام! جعر نجيب ثم ارتمى على ظهره يلمّ أنفاسه وصدره يعلو ويهبط بسرعة حيوان هارب من بنادق الصيد. فتحت سلام عينيها. كان بودّها أن تصرخ عاليًا، أن تزغرد وتهلّل وتصيح : مبروك عليك يا سلام، ها أنت قد جوزيت وكوفئت بعد طول انتظار! لكنها كتمتَ رغبتها تلك وتناولت ما تمَسح به الدَم الذي سال من أنفها وفمها،

على الصدر والبطن. نظرت بفخر وإعجاب إلى الفحل الممدد بجانبها على الأرض، وبشيء من الغنج والدلال قالت :

ــ أرجو أن تكون قد استمتعت. في المرة القادمة، لا تنسَ أن تَدْخُلَني من الباب الرئيسي. فأنا، كما لا تعلم ربما، لم أزل مختومة بشمع العذرية الأحمر.

— ١٠ —

لم يكن الناطورغـريب اللكنة، ولم يك على الأخص شـبيـهًا بذاك الناطور.

رجاه بكل تهـذيب أن يجلس في أحد المقاعـد الجلدية الموزّعة في مدخل البناية، بعد أن سـأله باحترام من يكون وإلى من يقصد. رفع سمّـاعة الهاتـف ثم قال : ميس شـيرين، لقد وصل الـسيّد لقـمان. صـمت ثانيـتين أو ثلاثاً، ثم تابع : سـيـد لقـمان! مـيس شـيـرين بانتظارك. الطابق الثالث، الشقة التي إلى اليسار.

وقف لقمان ينتظر المصعد. كان فـي إمكانه الصعود على قدميه، لكنه قرّر في سرّه أنّ أصحاب الشأن والمراتب الاجـتماعية يأخذون المصعد وينتظرون بهدوء أعصاب.

وصلت امرأة تمسك بيد صبي. حيّت لقمان. غود مورنينغ قالت، ثم دخلت المصعد فتـبعها. قرّبت إصبعـها من الزرّ الخامس وتلفّظت بجملـة لم يفقه لهـا معنى، فـهزّ برأسـه مبتـسمًـا مداريًا شـعوره بالحرج. كبست زرّ المصـعد، فصعد المصعد. ابتـسم الصبيّ الأشقر النظيف ورفع لعبة كان يحملها كي يقدّمها إلى لقمان. وصل المصعد إلى الطابق الخـامس، فشكرت الـسيـدة ثم غابت. كـبس لقمـان زرّ

الطابق السابع كي يوهمها أنه فهم ما قالته وأنه كراكب، إنما كان يقصد طابقًا أعلى من طابقها.

وصل إلى السابع، فلم يفتح الباب ولم يكبس زرّ الطابق الثالث. انطفأ مصباح المصعد الكهربائي، فأغمض لقمان عينيه وشعر بقلبه يضرب عنيفًا على غير عادته. ما بك؟ سأل نفسه. هي هذه الرائحة ولا ريب. رائحة العطر التي فاجأته. رائحة لا هي طيّبة بمعنى الوضوح أو الترف، ولا أكيدة بمعنى التوابل أو الزهور. رائحة خفيفة، كتوم، لا حشو فيها ولا تنميق. شيء خافت، يهمس برويّة، ثم حين تنتبه له، يكون قد تغلغل فيك وأقام.

فتح لقمان عينيه. ما الذي ينتظره يا ترى في الطابق الثالث؟ ميس شيرين! لم يقل لنجيب وسلام إنّ الزبون كان امرأةً تتحدّث بلكنة غريبة وبصوت جميل. ما إن سمعها تحكي في سمّاعة الهاتف، حتى زال عنه الغضب كما لو أن ماءً غسله فانزلق عن جلده بثوانٍ.

دفع لقمان باب المصعد قليلاً، فعاد المصباح يضيء. استدار إلى المرآة الكبيرة التي في قفاه ووقف يتأمّل نفسه فيها. ليته استحمّ قبل أن يجيء. أو ليته على الأقل وضع شيئًا من العطر. بلّ أصابعه بلعابه ثم مرّرها في شعره يردّه إلى الوراء. سوّى قبة سترته ثم رفع حاجبًا وعبس. لا! الأفضل أن يبتسم قليلاً مع شيء من العبوس. لا بأس بك البتّة يا سيّد لقمان، قال لنفسه، ثم نظر إلى صدره الموبر حيث يتدلّى سلسال ؛ تنفّس عميقًا ونفخه وهو يبتلع معدته كي يخفي كرشًا صغيرةً بدت على بعض تكوّر ونتوء. فكّر

لقمان أنه يحتاج إلى شيء من التـمارين الرياضية كي يأتي على ما بدأت تفسده سنُّه الثامنة والثلاثون.

أهلاً ميس شـيرين! قال عاليًـا وبثقة عارمـة في النفس. لكنه ما لبث أن قرّر أنّ فتـحة القميص أعمق من أن تغـوي امرأةً تحمل هذا النوع من الاسم. كم لهـا من العمـر؟ أشقـراء أم سمـراء؟ شقـراء، حتمًـا. طويلة القامة ومغرية ولكن من دون ابتـذال. صوتها ينمّ عن هذا كلّه. هه؟ مـا رأيك يا «زميل»؟ إن كانـت بالفعل على مـا أتخيّل وأتوقّع، إن أصاب حـدسي وكانت على بهاء وحسن نسب، فـعدني أن تبقى عاقلاً كي تثبت أنك أنت أيضًا جيّد التربية وابن أصول...

نزل المصعد الكهـربائي فجأةً، فعرف لقمـان أن أحدًا في الأسفل قد طلبـه. ضغط زرّ الإيقـاف ومن ثمة زرّ الطابق الثـالث، فيـما هو يقفل أزرار قميصـه على عجل ويخفي داخله السلسال. كان في نيته أن يُبقي على الزرّ الأخـير مفـتوحًا، إلا أن القـدر قرّر أن يقطع زرّه النصفي، ذاك المحاذي لأعـلى المعدة بالضبط، فيرمـيه إلى المرآة كي يصطدم بها ومنـها إلى الفتـحة الصـغيرة التي تفصل بين أرضـية المصعد والباب.

ها هو لقمان يقف أمام بابها بقـميص مفتوح على البطن. لم يكن ينقصــه إلا هذا. وماذا يفـعل الآن؟ يستـدير على أعقابـه ويعود من حيث جاء؟

نظر لقـمان إلى المربّع الأبيض الصـغيـر إلى جانب البـاب وقرأ اسمها كاملاً. يا الله، كيف يغادر امرأةً تحمل مثل هذا الاسـم قبل أن يراها؟ تبّـاً لها! ومن تكون؟ ومنـذ متى يخـشى هو لقمـان، نظرات أمثـالها مـن النسـاء؟ ومن يقـول له إنّها ليـست عجـوزًا لم يبق من

أرستقراطيتها سوى اللقب؟

كبس زرّ الجرس ووقف ينتظر. وعندما لم يأته جواب، عاد يضغط بثبات هذه المرّة، حتى لاح له ظلّ أخفى نور النظّارة الصغيرة وفتح الباب.

أدخلته على عجل واعتذرت راكضةً لأنها تتحدّث في الهاتف. أطبق لقمان الباب ثم اجتاز الممرّ وهو يقتاد بصوتها. انزعج من صوت نعليه المبريين على الرخام الأبيض، فمشى على رؤوس أصابعه تقريبًا كي يخفّف من وقع خطواته.

ولج الصالون، ففوجئ بكمية الضوء الذي تصبّه واجهة كبيرة زجاجية مطلّة على البحر والسماء. أصفر وأبيض، هذان هما لونا الأثاث القليل الموزّع هنا وهناك. نباتات ومستويات متفاوتة وأرائك في الأرض وصندوق خشبي كبير محفور ومطعّم بالموزاييك. مسجّلة تبثّ موسيقى ناعمة، مجلات وصحف مرمية في الأرض، ملفات وأوراق مكدّسة فوق طاولة كبيرة عليها كومبيوتر مضاء. لوحات ذات أشكال وألوان عجيبة، وإناء كبير مملوء بباقة عملاقة من الزهور.

جلس لقمان في أقرب مقعد وجده، فكان واطئًا جداً. وضع رجلاً على رجل، فتكوّرت كرشه الصغيرة وازداد غياب الزرّ المقطوع حضورًا حتى قرّر علاجه بإقفال السترة بالرغم من الحرّ. لم يرتح في وضعيته تلك، فأعاد قدميه إلى الأرض وحار في ما يفعل بيديه. فكّر أن يقوم إلى الكرسي الموضوع قرب الطاولة، لكنه عدل حين تذكّر نعليه وحسب المسافة الواجب عليه قطعها للوصول إليه.

كم يشعر بالضيق والانزعاج. ليته لم يأت. ليته بقي مع نجيب وسلام. الحقّ كله عليك يا «زميل». تورّطني دائمًا وتخلق لي قصصًا وحكايات. انظر إليها جيّدًا، أتعتقد أن امرأة مثلها ستلتفت إليك أو تكترث بك؟

راكعة على ركبتيها قرب واجهة الزجاج، تتحدّث في الهاتف بالفرنسية وتخلط عباراتها ببعض المفردات العربية. لم يتبيّن ملامحها جيدًا في الممر المعتم، وها هو الآن لا يرى منها سوى الظهر. ليست كبيرة القد. تمشي حافية القدمين. ترتدي جينزًا وقميصًا أبيض يفيض عن جسدها النحيل.

شعرها الأحمر الغزير ملموم في أعلى رأسها ومثبت بقلم رصاصي. ترفع يدها إلى مؤخرة الرأس، تلم خصلة فالتة وتحشرها بين بقية الخصلات، فيظهر قفا العنق أبيض ناصعًا يلتمع عليه في نور الشمس، زغبٌ ناعم أشقر طريّ. كأنه زغب عصافير. تبقى يدها ممسكة بعنقها الذي تحرّكه ذات اليمنى وذات اليسار. يدٌ صغيرة. كأنها لطفل. أصابع ليست على سمنة ولا هزال، ما يلزم فقط، وأظافر مقصوصة من دون طلاء...

التفتت فجأةً إليه وابتسمت، ثم تابعت الكلام في سمّاعة الهاتف...

تضع نظارات! نظّارات صغيرة مستديرة شفافة بإطار معدني راسية فوق أنفها الصغير! لا يصدّق لقمان عينيه. امرأة صغيرة بنظارات، يا للروعة! كأنه لم ير هذا من قبل. وإن رأى، فلم يكن ما

رآه شبيهًا بما يراه الآن.

حرّكت رأسها قليلاً بعد أن تعبت من وضعيّتها السابقة فجلست متربعة على الأرض. يرى ثلث وجهها. لا يرى فمها الذي تخفيه يدُها. تقضم أظافرها وتعبس. لا أقراط في أذنيها. لا حلي في يديها أو في عنقها. فقط ساعة صغيرة مستديرة بسوار جلدي أسود رفيع. كم عمرها؟ في بداية الثلاثين. أو في نهاية العشرين. على الحافة بينهما، هذا أكيد.

امرأة كهذه يشعر الواحد أنه يشتهي أكلها، لا النوم معها، فكّر لقمان. كحبّة ملبَّس. كراحة الحلقوم. كغزل البنات. يضعها في الفم ولا يلوك، بل يتركها تذوب على هواها كي تحرّر مذاقها بهدوء. مارينا بنكهة النعناع، والميس شيرين؟ فراولة أو برتقال. لا، ليست نكهة بل رائحة. ياسمين. أجل. تفوح إن حرّكها الهواء. تنساب بصمت، على مهل، وبنسائم متهادية تتدافع مسالمة كالموج. كل ما فيها مختلف وغير مألوف. شارعها، ناطورها، جيرانها، مصعدها، اسمها، شقتها، لكنتها، كل شيء...

ـــ أطلتُ عليك، آسفة. لكنه كان اتصال عمل.

لم يجب لقمان. بقي محدّقًا إليها لثوان، ثم حين اقتربت منه ومدّت يدها مصافحة، هبّ واقفًا يحيي بحرارة وحماس. اعتذرت مرة أخرى لأنها ستطفئ الكومبيوتر وتكون له بعد قليل. أعجبته الصيغة، تكون له بعد قليل.

اتّجهت إلى طاولة العمل، فبقي هو واقفًا وانتابه شيء من

الإحراج حتى وضع يده في جيب بنطاله واستدار ينظر إلى لوحة معلّقة في الجدار. وكي يفتح معها باب الكلام قال :

ـ لوحة جميلة جداً، أهي من رسمك؟

ـ C'est une reproduction de Van Gogh, elle vous plaît?

أجابته شيرين بذلك وهي لم تزل تحدّق إلى شاشة الكومبيوتر، ففكّر لقمان بما عساه يجيبها الآن، هو الذي لم يفقه حرفًا مما قالته؟

من موسيقى صوتها أحسّ أنّها طرحت عليه سؤالاً، وتأكّد له ذلك حين رآها تحدّق إليه من على طاولة عملها كأنها تنتظر جوابًا أو تعليقًا ما. نظر إليها ثم هزّ برأسه وابتسم وهو يرفع حاجبيه. ابتسمت بدورها إذ تيقّنت من أنه لا يفهم الفرنسية، وقالت ملتفتةً الى شاشة الكومبيوتر كي تجد لها مخرجًا وتزيل عنه الارتباك : أنت تهزأ بي!

تنفّس لقمان الصعداء في سرّه بعد أن مرّ هذا الامتحان على سلام، وقرّر أن يباشر بالهجوم قبل أن تقصفه هي بسؤال آخر ملغوم، فقال :

ـ عفوًا للسؤال، ولكن بماذا تعملين؟

سألته وهي تقوم من أمام الكومبيوتر بعد أن أطفأته، إن كان راغبًا في شيء من النيسكافيه. وافق شاكرًا، فدعته أن يرافقها.

هكذا تريه في الوقت ذاته أين رأت الفئران. قالت وهي تمشي أمامه في الممر المفضي إلى المطبخ :

ــ أعمل في الحفريات الأثرية. جئتُ مع بعثة فرنسية ضمن برنامج تعاون بين الأونيسكو والمديرية العامة للآثار.

ــ أنت فرنسية؟

ــ تقريبًا. ولدت هنا وهاجرت مع والديّ صغيرة ما إن اشتعلت الحرب. هي المرة الأولى التي أعود فيها بعد غياب عشرين عامًا.

ــ لكنك تتكلّمين العربية جيدًا.

ــ أجل. هو والدي الذي كان مصراً على محادثتي بالعربيّة، رحمه الله.

ــ فرحة بالعودة؟

التفتت إليه واعتلى وجهها شيء من الحزن. ثم قالت متفكّرة وهي تضع وعاءً مملوءًا بالماء على النار :

ــ لا أدري بماذا أجيب، مع أنه مضى على وجودي هنا عدة شهور. والدي هو الذي دفعني إلى العودة، أعني أني عدتُ من أجله بمعنًى ما. أمضى حياته يحلم بالرجوع، وقبل انتهاء الحرب بعام، مرض ومات.

تهدّج صوت شيرين ولاح في عينيها ماءٌ وارته بأن ذهبت إلى

خزانة تتناول منها فنجانين. وأنت سألته، ماذا عنك؟

سكت لقمان. سكت طويلا وعميقًا ثم أحنى رأسه يحدّق إلى الأرض، فارتبكت شيرين. لم تقصد قالت، ثم أدارت رأسها تنظر في النافذة وتحتسي فنجانها من النيسكافيه.

فكّر لقمان : ما الذي تخيّلته عنه كي تشعر بهذه الكمية من الذنب؟ تظنّ أنه من ضحايا الحرب، لا ريب. أجل، هذا أكيد. ضحية، أنا؟ فقط لو تعلمين. من أين يدخل إليها، كان يتساءل منذ قليل بعد أن أحسّها حصنًا منيعًا محميّاً بألف سور. حسنٌ أنه لم ييأس بسرعة، ذلك أنها هكذا ومن دون تعب أو جهد، فضحت سرّها وسلّمته المفتاح.

لحظات مرّت رفع لقمان من بعدها نظره عن الأرض وقال عابسًا : لو تريني الآن ما هي المشكلة يا آنسة شيرين...

■■■ ■■■

حين خرج لقمان من عندها كان رجلاً آخر.

من تاريخه كلّه، لم يُبق سوى على الاسم. لقمان صبيّ وحيد توفي والداه في الحرب. سيّارة مفخّخة انفجرت قرب البناية، فذهبا ضحيتها. هو كان في زيارة لأحد الرفاق...

ترك المدرسة وانتمى إلى أحد الأحزاب. قاتل لسنوات، ثم حين اكتشف أنها حرب مصالح ومرتزقين وأوغاد، غادر الميليشيا. حاول الانتحار مرارًا، لكن الحظ لم يحالفه، حتى عاد إليه وعيه وقرر أن يكافح كي يبقى على قيد الحياة. عمل في عدة وظائف صغيرة، ثم حين انتهت الحرب، تشارك وأصدقاء وقرروا تأسيس شركة لإبادة الجرذان.

تكلّم لقمان في السياسة، في المبادئ وأصول النضال، وختم حديثه بخطاب طويل عن غياب الأخلاق والانحطاط، فعلقت السمكة شيرين في الصنّارة وقضمت الطعم.

ستحبّه. أليس ضحية الحرب التي راح والدُها ضحيتها أيضًا بمعنًى ما؟ أجل. ستحبّه غصبًا عنها إذا اقتضى الأمر. سيفعل كل ما في وسعه كي تقع في غرامه، فلا تعود قادرةً على الاستغناء عنه. شيرين هي اليد التي ستمحو ماضيه بضربة قلم وتفتح أمامه باب المستقبل على مصراعيه. تلزمه. يعوزها. يحتاج اللقب والموقع والاعتراف الاجتماعي، بل ربما منحته جنسية أخرى والإقامة في بلد أجنبي. ألم تقل إنّها ستغادر بعد أن تنتهي مهمّتها هنا، وإنها ستعود إلى عملها في باريس؟ باريس! يا لهذا النهار الرائع الجميل

المبارك، فكّر لقمان. باريس، أتسمع يا «زميل»؟ قالت باريس!

هي تحكي عمّا صادف بعثتها في الحفريات من مشاكل وتهديدات، عن غنى البلد بالآثار وغشّ المسؤولين وقلة شعورهم بالمسؤولية، ولقمان يفكّر في نوعية اللغم الذي سيصيب منها القلب بضربة سريعة قاضية لا تضطرّه إلى القيام بعدة محاولات. لا وقت يضيعه. أشهر قليلة وتغادر. فليتفاءل خيرًا وليقل : أشهر معدودة ويغادران.

قال لها : لو تريني الآن ما هي المشكلة يا آنسة شيرين، فانحنت تفتح خزانة المؤونة في المطبخ كي تدلّه على علب وأكياس غذائية ممزقة طُحن محتواها وذري في كل مكان. اقترب وانحنى بدوره يتفحّص ويدرس البعر الذي خلفته الفئران حجمًا ونوعيّةً.

عندما استقامت، فوقع القلم من على رأسها وانفلت شعرها الأحمر غزيرًا على كتفيها ووجهها، وعبقت رائحة تغلغلت في أنف لقمان. نظر إليها وكانت تقف على مقربة، فبانت عيناها الخضراوان من تحت زجاج النظارات تنظران إليه محتارتين حيرة الأولاد الصغار. سلخ لقمان عينيه عن عينيها وتقصّد أن يقوم بحركة توهمها أنه يشعر بالحياء والانفعال، ثم انحنى يلمّ القلم ويعيده إليها. شكرته بوجه يعلوه الاحمرار وهي تلمّ خصلها الملتفّة المبعثرة، فتركها وعاد إلى الصالون.

قالت إنها لا تريد قتل الفئران وإنها تتمنّى لو يكون بمقدوره إبعادها. يا للروعة، فكّر. امرأة صغيرة كالفأرة وتخاف على

الفئران! ثم ردّ عابسًا: ينبغي التأكّد قبلاً من أنها ليست جرذانًا.

جلس إلى الطاولة بعد أن طلب ورقة وقلماً وأخذ يطرح عليها أسئلة شبيهة باستفسارات الأطباء. تجيبه فيدّون ملاحظاته إلى أن حان موعد التشخيص. قال إنها جرذان صغيرة زارتها مصادفةً، وهذا معناه أن هناك قبيلة منها ستتبع عمّا قريب ما إن تُبلَّغ عن مكان الغذاء المكتشف ووفرته. هكذا تعمل الجرذان، ترسل كشّافةً للاستطلاع، ثم تتبعها البقية إن وقعت على صيد ثمين.

ذُعرت شيرين. والحل؟ طمأنها. نضع لها طعمًا لأيام ونسهّل وصولها إليه حتى تنسى حذرها وتأتي بأعداد وافرة. وعندما تأمن وتعتاد، نخلط الطعم بالسم. هكذا نقتل أكبر عدد منها بحيث ترى قتلاها، فتخاف وتهجر المكان.

بضعة أسابيع. تلك هي المهلة التي أعطاها لقمان لنفسه كي تعلق شيرين بطعمه وتقع في الفخّ. سيأتيها كل يوم ويوهمها أنه يفبرك نوعًا خاصّاً من الطعوم وأن عليه تجديدها كل ٢٤ ساعة على الأكثر، وإلاّ قرفتها الجرذان التي تعشق ما هو طازج وتأنف كل ما هو عتيق. وربما اصطحب في جعبته ذات يوم، جرذًا أو جرذين يفلتهما في الشقّة كي تصدّقه. هكذا تأكل جرذانه فأرتها الصغيرة ويخلق وضعًا يجعلها تحتاجه وتتشبّث به.

ـ ١١ ـ

ــ بماذا أخطأتُ...؟

رفعت لوريس عينيها عن السماء، ثم مشت في اتجاه غرفة نوم ابنها الوحيد، الأبرص أو إلياس. أضاءت النور، فتحت خزانة الملابس وبدأت تخرج الثياب وتكدّسها فوق السرير. وقعت على لفافات وبقايا أقمشة عتيقة، فرفعتها تشمّ رائحتها حتى تساقطت حبّات النفتالين وكرجت على البلاط المزخرف القديم.

وقفت لوريس تتأمّل حركتها باهتمام بالغ. وحين ركنت الكريات الصغيرة البيضاء، عبست واستدارت على نفسها تفكّر في ما عساها كانت تفعل وما الذي جعلها تكدّس هذا الكمّ من الثياب. أجل! ينبغي لها أن تخيط ثيابًا للصغير. ستفرغ الخزانة قبلاً وترمي كل هذه البناطلين والقمصان والبذلات.

جمعت ما استطاعت بذراعيها واتجهت إلى نافذة الصالون. فتحتها وراحت ترمي حمولتها على الطريق. انحنت تتفقّد ما سقط، ثم ابتسمت وهي تتأمل في الشارع الصغير.

إلى النافذة كانت تقف كي تشيّعه بعينيها عند ذهابه إلى المدرسة أو حين رجوعه منها. تراه ينمو سنتمترًا وراء سنتمتر، خارج

حجرها، على الطريق، ترتفع قامتـه ويعرض منكباه. تنظر إلى نعليه يخبطان الأسفلت وتنتظر أن يذوبا قليلاً حتى تركض إلى الإسكافي. لا ينبغي للصغير أن يشعر بالدونية وباختلافه عن الرفاق.

حين توفي والده الذي كان يعمل موظفًـا في شركة الكهرباء، لم تحزن لوريس ولم يحـزن إلياس. جلسا مـعًا بعد رحـيله، كزوجين. كأن الذي غاب لم يكن سوى ضيف مـؤقّت غادر بعد أن حان موعد الغياب. واستـمرّت الحياة في الغد، كأن شيـئًا لم يطرأ. كأن الأمور استتبّت أخيرًا وعادت إلى سيرها الاعتيادي الرتيب.

تمضـي نهاراتها تخيط ويغرق هو قبالتها بين كتبه والدفاتر. تعدّ العشاء فـيجلسان سوية ويخبرها مـا الذي فعل في يومه المدرسي الطويل. وإن عاد ووجـد زائرات في الدار جئن لقياس الملابس، حـيّا بصـوت خافت دون أن يلتـفت واتجـه مبـاشرةً إلـى غرفـته حـتى خروجـهن. هكذا كانت لوريس تنال وسامين : واحـدًا لبراعتـها في الخياطة وآخر لتفوّقها في أصول التربية والتهذيب.

حتى جـاء ذلك اليوم الملعون. الآن تراه ملـعونًا، لكنها حـينها لم تفطن لشيء، ومـا أحـسّت أن الذي جرى كـان يسـتدعي أن توليـه المزيد من الانتباه.

استيقظ إلياس متأخّرًا بعـد أن أطال السهر في مراجعة دروسه. كان مـتوتّرا لأنه كان مـشرفًا على تقـديم فحوص في كـافة المواد. أعدّت له زاده كالعادة، ووضعـته في كيس النيلون على الطاولة كي

يحمله في محفظته قبل ذهابه وبعد شرب كوب الحليب.

قبّلها وخرج، فوقفت في النافذة تشيّعه وتدعو له بصفاء الذهن والتوفيق. وحين غاب من أمام ناظريها، أقفلت النافذة وجلست إلى آلة الخياطة كما تفعل كل صباح.

أنهت الثوب الذي في يدها، ثم قامت إلى المطبخ حين دقّت العاشرة والنصف كي تصنع لنفسها فنجان القهوة الذي تتناوله في استراحتها الصباحيّة المعتادة. فوجدته. كيس النيلون وفي داخله زاد الصبي!

جنّت لوريس. ماذا سيأكل على الغداء؟ سيجوع. وربما أصابه دوار وأغمي عليه. وربما مات. يا إلهي! ركضت إلى المدرسة بعد أن وضعت عليها المعطف كيفما اتفق. كان يومًا ممطرًا وبه ريح عاصفة وبرق ورعد. وصلت وتوسّلت إلى الناطور كي يتركها تدخل، وإلى الناظر كي تسلّمه بنفسها ما حملته.

بعد طول عناد فتح لها الناطور. وبعد طول رجاء وإلحاح سمح لها الناظر بأن تحمل إليه الكيس بنفسها إلى الصفّ. أرادت أن تتأكّد من أنه سيتناول طعام الغداء. خافت أن ينساه الناطور ومن ثَمّ الناظر. رغبت في أن تلمحه، للحظة، كي يبرد قلبها وتطمئنّ. كي تراه أميراً في بذلته المدرسية جالسًا في الصف بين بقية التلاميذ.

قرعت الباب بخفّة. فجاءت المعلّمة وفتحته. مالت لوريس برأسها كي تراه. ورأته. كان ممتقع اللون. حياءً ظنّت. وكان حياءً بالفعل. وضع كفّيه على وجهه وخفض عينيه. لم تصرّ.

رفعت الكيس ولوّحت له به، فانزلق في مقعده كأنه يودّ الاختفاء، كأنه ليس المعنيّ بإشاراتها تلك. فهمت لوريس. همست للمعلّمة باسمه، ثم أعطتها الكيس وانصرفت.

حين عاد قبيل العصر، في الرابعة والنصف تمامًا من بعد الظهر، قامت إليه تستقبله. فما حيّاها وما قبّلها وما نبس بحرف. دخل غرفته مباشرةً وأقفل على نفسه بالمفتاح.

انتظرت: ساعة، ساعتين، ثلاثًا، حتى دقّت السابعة والنصف، فقرعت تدعوه إلى أن يخرج للعشاء. وما أجاب. خافت أن يكون ألمّ به مكروه، فألحّت ونادت وتوسّلت حتى تلفّظ بجملة واحدة مفادها أن لديه مذاكرةً والكثير من الفروض. سكتت، ثم وضعت صينية العشاء على الأرض أمام الباب وانسحبت.

واختلف الياس وما عاد الصبي هو نفسه. يبقى عابسًا وصامتًا لأيام. وإن فتح فاه، فللخصام والصراخ والشكوى والشتم والبكاء. وساءت علاماته ونتائجه المدرسيّة. حتى حملتُ نفسي وذهبت إلى معلّمته أسألها أن تشرح لي إن كان لديها تفسير لما ألمّ به وحوّله إلى ما بات عليه.

حين خرجتُ من عندها، كنت لا ألوي على شيء. تسيل دموعي من عينيّ، بل تجري جريًا، وأنا أحادث نفسي بصوت عال وأشهق وأردّد : ابنك يا لوريس يخجل بك ويدّعي أنك لست أمّه! إنها الخادمة قال لهم. أجل، المرأة التي وافته بكيس السندويشات — أنا — ليست لوريس، وإنما الخادمة التي أرسلتها والدتُه كي تحمل إليه الزاد. لوريس من سيدات المجتمع، ثرية وذات نسب وأصول. مثل

بقيـة الأمهات. أمـهات بقـية الرفاق. مـا تزن خيّاطـة صغيـرة القدّ والأصل في ميزان المجتمع الذي يعيش فـيه إلياس، ابن مدير شركة الكهرباء!

وما قلتُ لمعلّمته إنه يكذب ويختلق ويدّعي ويتوهّم. هززت رأسي وبكيت فيما أنا أبحث عن عذر ينقذه من العقاب ويتيح له أن يحافظ على احترام أساتذته له. حتى وجدت. أنا التي ربّيتـه، أجبتُها، ربّيته وأحببته إلى درجة أني أخلط أحيانًا واعتبره بمنزلة الابن.

وما رويتُ «لسـيّدي» الصغير قط مـا كان من أمري مع معـلّمته تلك.

وكبر إلياس.

وجاءت الحرب.

وساءت الأحوال.

وانقطعت الطرق المؤدّية إلى مدرسته.

وانتقل إلى مدرسة أخرى لا تبعـد سوى بضع مئات الأمتار عن الحي.

واختلف الصبيّ.

وصار يعود إلى البيت مع الرفاق.

وعدتُ أمه.

ونسيتُ.

وصار يُدعى الأبرص.

وصرتُ والدة الأبرص زعيم الحيّ...

انتهى الخيط في بكرة آلة الخـياطة، فقامت لوريس إلى غرفـتها

كي تبحث عن بديل له. فكّرت أن تنزل إلى السوق غدًا كي تتجهّز بما نفد من لوازم وينقصها من أغراض. نظرت إلى ساعة المنبّه فوجدتها تشير إلى تمام الثالثة إلا ربعًا. ينبغي لها أن تسرع في إعداد الطعام. أجل، وهناك الكعكة أيضًا. عندما يجوع، لا ينتظر. وعندما ينتظر يزول عنه الجوع.

عادت إلى الصالون واستبدلت بكرة الخيطان الفارغة بواحدة ملأى. لا بأس. اللون قريب وليس الفرق واضحًا. أنهت درز الذيل بسرعة، ثم رفعت القميص. وضعته فوق البنطلون وابتعدت قليلاً كي تتمكّن من رؤية القطعتين معًا فتتأكّد من تناسقهما.

حينما يصل وقبل أن يأكل، ستطلب منه أن يجرّبهما. هذه هديتي لك ستقول. وربما أضافت مغلّفًا فيه بعض النقود كي يشتري ما يحلو له. تقبّله وتعطيه هداياه، تشعل الشمعات ثم تقول: مبروك عيد ميلادك يا حبيبي، صار عمرك اليوم عشر سنوات!

دقّت ساعة الصالون تمام الثالثة، فصرخت لوريس في اتجاهها : يا إلهي، ساعة وينتهي دوام المدرسة ويعود! ثم أسرعت إلى المطبخ.

بقيت الساعة الكبيرة تدور على مهل كما تفعل منذ سنين. ولو كان بإمكانها الردّ لقالت :

ــ دَقَقْتُ الثالثة يا لوريس، هذا صحيح. لكنها ليست الثالثة من بعد الظهر كما تظنّين، بل من بعد منتصف الليل!

ـ ١٢ ـ

أطفأ لقمان آلة الحساب، ثم جمع الشريط الورقيّ الطويل على شكل لفافة وقذفها في اتجاه سلام، فانفلشت في طيرانها ورست على الأرض. ابتسمت سلام وانحنت تلمّها وتقول :

ـ لقمان، إن واصلت مزاحك السمج علّقتُه في قفاك كالذنب وصنعتُ لك طربوشًا وكتبتُ عليه هذه قبعة الشيطان!

مضت أيام وهي على هذا المزاج الطيّب. يكفي لقمان أن يرى البقع الزرقاء في رقبتها، حروق السجائر على ذراعيها والخطوط الليلكية على فخذيها، كي يفهم مصدر سعادتها الطارئة ومزاجها الخفيف ذاك. نجيب، هو الله من أرسلك إليّ كي تنقذني من سلام وحلمها بالزواج.

حين عاد ذلك المساء من عند شيرين، وجدهما معًا يتعشّيان. سألاه عن الزبون، فتحايل في الجواب منتهيًا إلى أنهما لم يتفقا على السعر. جلس بالقرب منهما، ثم أخذ رأس سلام وقبّله وقال: لم أقصد شيئًا ممّا قلت، فأنتِ والله أعزّ من أختي عليّ.

تعرفين سوء الأحوال والضغط وتعب الأعصاب. ثم غمزها وأضاف : صافي يا لبن؟ فضحكت وهزّت برأسها وقالت : أجل، صافٍ يا لقمان.

أمر علاقتها بنجيب اكتشفه في ما بعد. حين أخذ يلحظ تشوّه ملامحها والآثار التي كان يخلفها الوقتُ الذي جعلت تمضيه برفقة نجيب. في البدء، كانت تخفي علامات حبّها المستجدّ بمناديل تربطها حول الرقبة للزينة، بناطلين قلّ أن ترتديها، أو قمصان طويلة الأكمام. وحين أشار لقمان ضمنًا إلى أنه على بيّنة مما يجري وراء ظهره وأنه غير معترض، بل على العكس مسرور لسير الأمور بينها وبين نجيب، ارتاحت وصارت تفاخر بالكشف عمّا تحمله من آثار تبرزها أوسمةً وأدلّة قاطعة على ترقّيها في مراتب الحب والعلاقات.

صارت سلام تأتي إليهما كل يوم تقريبًا، وما عاد يضيرها أو يغضبها غياب لقمان لساعات طوال. بل كانت كلما غاب، تكافئه بمزيد من التكريم، فتغضّ النظر عن مصاريف إضافية جعل يطالب بها متحجّجًا بأعذار واهية لم تكن لتتوقّف عندها بالرغم من سوء الأعمال. باختصار، عادت سلام تغدق على لقمان وتحوّل هو إلى ما يشبه رجال الأعمال، بينما استغرق نجيب في إقامة تجارب جعلته يكتسب مظهر عالمٍ مجنون.

يفتح الدفتر الذي أورثه إياه رجل المصح ـ أينشتاين ـ ويستغرق في قراءته لساعات. يدّعي أنه سيخترع سُمّاً، بل السمّ الذي سيبيد أمّة الجرذان عن بكرة أبيها، يسجّل الاختراع باسمه ويصبح من أهل العلم والشهرة والملايين. يشتري كتبًا إضافية في علم النبات والكيمياء والحيوان، ويقوم بتجارب غريبة تفوح بالروائح العجيبة المختلطة المصادر والنكهات.

إلى أن تحوّلت شقة لقمان إلى ما يشبه المختبر الرسمي : مراطبين وقوارير وآلات وأقفاص مليئة بالفئران والجرذان والحشرات التي كان يصيدها في جولاته الليليّة على الأحياء السكنية الفقيرة ومكبّات النفايات.

إلى أن قرّر لقمان التحدّث إلى سلام ومفاتحتها بالأمر، فقصدها ذات يوم في عملها في السنترال.

ـ ألا تجدين أن نجيب بات غريب الأطوار؟

ـ تقصد تجاربه والدفتر الذي يقرأ فيه دومًا كما لو كان يحوي كل الحكم والأسرار؟ ما همّ يا لقمان، ما دام هذا يلهيه عن بقية النساء ويبقيه في متناول يديّ.

ـ أجل، ولكن هل رأيتِ ما آلت إليه الشقة من فوضى و...

وافقته فورًا. أنت على ألف حقّ قالت. أتعبناك يا لقمان وبالغنا،

أعرف. ماذا لو أقنعتَ نجيب بضرورة الانتقال. هكذا يكون له متسع من المكان للقيام بتجاربه، فيريح وترتاح. بالطبع، نبقي شقتك مكتبًا و...

فهم لقمان. يعرض على نجيب أن ينتقل إلى بيت سلام. لا يعرض عليه ذلك مباشرةً، بل يلمّح ويشير إلى أن شقته عادت لا تتّسع، أنه يحتاج بعضًا من الحميمية كي يكون في وسعه استقبال من يشاء من الضيوف أو يرغب فيه من النساء...

مارينا مثلاً أيها الخائن؟ قاطعته سلام ضاحكة، ثم أضافت : أأتّكل عليك؟ هذه خدمة إن اسديتَها إليّ يا لقمان، ما نسيتُها بعمري ولأظهرت منك أخيرًا شيئًا من الشكر والاعتراف بالجميل.

ها هما اليوم مجتمعان بحسب الميعاد لتنفيذ خطتهما، وها هو نجيب يخرج من المطبخ حاملاً دفتره بين يديه.

اقترب من سلام ثم مدّ إليها الدفتر يريها فيه شيئًا ما وهو يقول : أتعرفينها؟

تأمّلت سلام في الرسم جيِّدًا، ثم رفعت عينيها في ما يشبه الاعتذار. عبس نجيب خائبًا، ثم همّ بالعودة من حيث جاء. استوقفه لقمان يسأله : ما الأمر؟ فأجابه أن هناك نبتة دوّن أينشتاين اسمها باللاتينيّة ــ Urginea maritima ــ وأنه لسوء الحظّ لم يقع على ترجمة لها في القاموس. وما يقول عنها، سأل لقمان بعد أن غمز بطرف عينه سلام، فقرأ نجيب :

هي نبتة لا تنمو إلا في حوض المتوسّط. استعملها الأغارقة والمصريون والفرس والعرب والرومان لخصائصها المنظّفة للرئتين والمصرّفة للمياه، ثم استخدمها العرب ضدّ البق والصراصير وسواها لأن بها مزايا مضادة للجراثيم. يراوح ارتفاعها بين ١ م و١,٥م ، أوراقها كبيرة مسنّنة الرأس تجتمع كلّها عند أسفل الساق. زهورها بيضاء أو خضراء، تنمو على شكل عنقود طويل منذ تموز وحتى أيلول، وهي نوع من الثمر البيضاوي المحتوي على بذرتين أو ثلاث. للجذر شكل بصلة مغلّفة بقشور حمراء...

يكفي! صرخ لقمان ضاحكًا. فاقترب منه نجيب يريه رسمًا للنبتة منتزعًا من كتاب وملصقًا على صفحة بيضاء في الدفتر. هذه بصلة الفار يا رجل! ما بك يا نجيب؟ المنطقة حولنا مليئة بها. كانت أمي تغليها كي نشرب ماءها ضد النزلة الصدرية والرشح والسعال.

فرح نجيب. هلّل فرحًا. أغلق الدفتر وجلس في الكنبة قرب سلام رافعًا قدميه على المنضدة التي أمامه. أشعل سيجارة ومجّها عميقًا كمن يرتاح بعد طول عناء.

قال لقمان : حين يستعصي عليك أمر، ما عليك سوى بسؤال لقمان ملك الألغاز ومجترح المعجزات! هه، أفي حوزتك أحجية أخرى؟

قال نجيب : شهر أو شهران على الأكثر، وتكون الوصفة في يدي.

سأله لقمان : الوصفة؟ أية وصفة؟

أجاب نجيب : لقد حللتَ مشكلتي يا لقمان. كنتُ حائرًا في أي من الحلّين أختار : حرب الجراثيم، أم الإبادة بالكيمياء.

قال لقمان ضاحكًا : وماذا اعتمدت؟

قال نجيب : الكيمياء، إذا فشلت معي جرّبتُ الجراثيم.

قالت سلام : الله الله. والشركة؟ والحسابات التي قمت بها يا لقمان وكشفت عن خسارة تهدّدنا بالانكسار؟ مابك، أنسيتَ غرض اجتماعنا اليوم؟

قال نجيب : المشكلة هي وفرة الجرذان في الأحياء الفقيرة وقلّة العملة في جيوب أهلها. والحل؟ نذهب إلى بعض الأحياء الثرية ليلاً، ونفلت هنا وهناك بعض الجرذان.

قالت سلام : فكرة معقولة. ما رأيك يا لقمان؟

قال لقمان ممازحًا : أنا عندي فكرة أكثر عبقرية! نختار لنا ضحية، نطليها باللبن ونفلت عليها الجرذان...

قالت سلام : لقمان! كن جدّياً لمرّة.

قال نجيب متحمّسًا : أجل! نختار ضحية ونفلت عليها الجرذان،

ثم نرميها في مكان عام بحيث يلاحظها الناس ويبلّغون عنها، فتأتي الصحف والجرائد ويصبح الخبر في الصفحات الأولى. وخذ حينها على ذعر وخوف واتصالات ودولارات...

قال لقمان : الضحية عليّ !

سألت سلام ضاحكةً : ومن تكون؟

قال لقمان : الناطور! يا إلهي، ما أجمل أن أرى الجرذان تلتهمه فلا تُبقي على أثر له.

قال نجيب : ولم لا تكون صاحبة الحظ مسؤولة المصحّ. أُفلتُ جرذانًا أصيلة بين فَخذيها كي تلتذّ على الأصول.

قالت سلام : أو... مارينا، عشيقة لقمان!

قال لقمان : شيوعيا؟ حرام عليكِ.

قالت سلام : لا شيء عندي ضدّها، قسمًا بالله. لكنها الأنسب والأكثر ضمانةً لنا، إذ من سيطالب بها؟ لا أهل ولا أصدقاء...

اقتنصت سلام فرصة الحديث عن النساء كي تعود إلى تذكير لقمان بغرض اجتماعهم هذا المساء. فما كان منه إلا أن استجاب هذه المرّة بأن باشر الحديث معطيًا إياه الوجهة المناسبة التي أوصلتهم هم الثلاثة إلى الاتفّاق على قرار : ضرورة انتقَال نجيب ومخبره في أسرع وقت إلى شقة سلام.

— ١٣ —

أهلاً، قال له الناطور بوجهه المرحّب البشوش، ثم رفع حاجبيه إعجابًا بأناقة لقمان.

صار من أهل البيت، وما عادت زياراته التي تكرّرت تحتاج إلى إنذار الميس شيرين أو التحقّق من أنه بالفعل على ميعاد معها.

فتحت له الباب وهي تمسك بفوطة. أدخلته الصالون ودعته إلى الجلوس في انتظار أن تغسل يديها لأنها كانت منهمكةً في إعداد الطعام، إذ سيأتيها ناس على العشاء. أبى لقمان إلا أن تكمل عملها مقترحًا أن يجلس معها في المطبخ.

وضعت شيرين الركوة على النار وسألته إذا ما كان قد حمل إليها الفاتورة كي تدفع له بدل أتعابه، فأدخل يده في جيب قميصه وسحب ورقةً صغيرة مطوية وهو يقول : أرجو ألا تُفاجإي بالسعر.

قرأت شيرين مضمون الورقة، ثم رفعت عينيها إلى لقمان وضحكت وهي تهزّ رأسها ذات اليمنى وذات اليسار. معقول؟ هذا سعر زهيد جداً، قالت، بل حتى إنه تقريبًا مجاني. فابتسم لقمان بدوره وأجاب : بل هو أكثر مما أستأهل يا ست شيرين.

عادت تقرأ الورقة وقالت : بما أن فاتورتك تقول إن لقاء أتعابك هو قبولي بدعوة على العشاء، ها إني ألبي الطلب فورًا شرط أن تكون أنت المدعو.

شكرها لقمان واعتذر عن البقاء، ذلك أن أصدقاءها من أبناء النسب والمثقفين الذين يتقنون اللغات، سيستغربون حتمًا وجود شخص مثله من عامة الشعب، شبه أمّيّ، وقاتل جرذان فوقّ هذا كلّه. استنكرت شيرين وقالت :

ـــ أنا فخورة جداً بالتعرّف إليك.

ـــ لا تشعري بالإحراج يا آنسة شيرين، أعود مرة أخرى.

ـــ ابقَ، أرجوك.

سكت لقمان. دقّ جرس الباب، فأمسكته من يده وقالت آمرةً قبل أن تذهب لاستقبال أوّل زوّارها : ستبقى، أنا بحاجة إليك...

حين تحلّق الضيوف حول مائدة العشاء، أجلسته عن يمينها بعد أن عرّفته بالجميع وعرّفتهم به، مستعملةً عبارة mon ami لقمان.

كانوا خليطًا من الجنسيات والأعمار. أساتذة في الجامعة، باحثون وعلماء آثار، فرنسيون وإنكليز وإيطاليون وألمان. تحدّثت شيرين إليهم جميعًا، وكانت بين الفينة والأخرى، تميل على

لقمان وتترجم له باختصار ما يدور من نقاشات وأحاديث... إلى أن جاء دوره. كان يخشى هذه اللحظة وها هي قد حلّت مثقلة على صدره. توجّه إليه أحدُهم بالحديث، فبقي لقمان هادئًا ونظر إلى شيرين كأنما يقول لها بصمته : لقد حذّرتُك!

تبسّمت مُطَمْئنةً، ثم تحدّثت إلى طارح السؤال، فالتفت كل الزوّار إلى لقمان يتأمّلونه باهتمام بالغ، كأنما يطالبونه بمزيد من المعلومات.

لعبت شيرين دور المترجم بين لقمان وزوّارها بعد أن أخبرتهم عن نوعية عمله، وتدخّل أحدهم مشيرًا إلى الأهمية التي تتخذها مخابئ الجرذان في أعين علماء الآثار، إذ تساعدهم على دراسة عادات وميزات حقبة تاريخية معينة، ذلك أنها غالبًا ما تحتوي على كمية من البقايا والأشياء وحتى قطع النقد...

استفاض لقمان في عرض معلوماته حول الموضوع. بهّر وملّح، ورشّ تعليقات طريفة هنا وهناك، حتى وقعت شيرين تحت سحره بعد أن رأت الآخرين به مسحورين.

انتقل مركز الحديث من لقمان لكي يتوزّع على عدة حلقات صغيرة بعد أن انفضّ الضيوف من حول المائدة وانتقلوا للجلوس في الصالون. وضعت شيرين شريطًا موسيقياً، خففت الضوء قليلاً، ثم قامت ترفع بعض الكؤوس وقناني النبيذ الفارغة وتدخل بها إلى المطبخ.

وقف لقمان يفرغ بعض الصحون الملأى بأعقاب السجائر، وتبعها. شكرته، ثم مدّت إليه قنينة شمبانيا مثلّجة، فتناولها، وضعها على الطاولة، ثم أخذ يدها يمسكها ويبقيها بين يديه.

ارتبكت شيرين ونظرت إليه بعينين زائغتين. هل هو مفعول ما شربته من نبيذ، أم تراه مفعوله هو لقمان؟ كي يتأكّد، رفع يدها إلى فمه وقبّلها. أبقى أصابعها ملتصقةً بشفتيه، ثم نظر إليها يتأمّل في ملامح وجهها ويحمّل نظراته كل ما في قلبه من توق.

خفضت شيرين رأسها ثم أغمضت عينيها. لا، لن يقبّلها الآن. سيأخذها أوّلاً بين ذراعيه، يضمّها بقوة، يقبّل جبينها، ثم يبعدها عنه. شيرين امرأة رومنطيقية. ما يعوزها أوّلاً وآخرًا، هو قصة حبّ. الجنس يأتي لاحقًا، بعد أن يتأكّد لها أنه يحبّها. بصمت. بحنان. كأب. كأبيها المرحوم.

عاد لقمان إلى الصالون بزجاجة الشمبانيا، ودارت شيرين توزّع الأقداح. يراها تتحرّك بشكل مختلف الآن وكأن صحوةً أصابت جسدها فجأةً فاندفع الدم يلوّن وجنتيها ويبث في أوصالها النشاط.

جلست على أريكة في الزاوية بعد أن خلعت حذاءها، رفعت يدها وحلّت العقدة التي تربط شعرها. نفضت رأسها فطارت الخصل المتماوجة الحمراء وانهملت على الوجه والكتفين.

سترفع نظّارتيها بعد قليل. يعرف لقمان ذلك... أجل، ها هي قد

رفعتهما ووضعتهمـا إلى جانبها على الأرض. أغمضت عينيها وألقت رأسها على الجدار، فيما هي تمسك بساقيها اللتين طوتهما وضمّتهم إلى صدرها. بم تحلم؟ بلقمان؟ ربما. سينتظر ليتأكّد.

توجّـه إليهـا أحدهم بالكلام، فـأصلحت من قـعدتهـا وأجابتـه. تناولت كأس الشـمبـانيا وشربت. جـرعة صغـيرة، جرعـة أخرى، والتفـتت إليه، فخـفض لقمان عـينيه كي يوهمهـا بأنه لم يكن ينظر إليها، كي يوهمـها بأنه توهّم أنه أوهمها أنّـه لم يكن ينظر إليـها. ما رأيك يا «زميل»، ألا ترى أنه لا بأس أبدًا بي؟

عبس لقمان وحرص على أن يظـهر بمظهر عاشق حزين يرى أن مسافات عصيّة شائكة تحول بينه وبين الوصول إلى غرض عشقه. هذا ما تّحـبه النساء:رجل عـاشق يرسل نظراته بعيـدًا، في الفراغ، مستغرقًا في عشقه الحزين.

ها هي تعاود النظر إليه. عيناها تلتمعان بألف شعاع وتقولان ما تكون عليه امـرأة تشعر أنها مقـبلة على قصة عشـق، وكيف يمتزج جمالها فجأةً بشيء إضـافي عندما يلقي رجل في قلبها البذرة التي ستوقعها أخيرًا في الغرام.

قام زوّار شيرين يشكرون ويودّعـون. وقف لقمان حائرًا في ما تراه يفعل أو يقول. سأله أحدهم بالصوت والإشارة عمّا إذا كان معه سيارة، فأجاب لقمان بالنفي، فعرض عليه الزائر أن يصطحبه معه.

شيـرين، التي كانت تتابع الحوار بطـرف عينها قطعت، حديثـها والتفتت إلى لقـمان تسأله متلهّفـة : أمغادرٌ أنت أيضًا؟ فرفع كتـفيه

بما معناه : لا أدري. فأضافت : أنا لا أشعر بالنعاس، وأنت؟ أنا أيضًا أجابها، فابتسمت وقالت : إذن، نسهر سوية قليلاً بعد.

رجع لقمان إلى الصالون وتركها تودّع ضيوفها وتقف معهم لدقائق أمام باب المصعد الكهربائي. جلس في الكنبة الكبيرة وهنّأ نفسه لأنه تحسّب لهذه المناسبة، فاستحمّ وقصّ أظافر قدميه ويديه وارتدى ثيابًا داخلية نظيفة وتضمّخ بالعطر.

لا ينبغي لك أن تستعجل يا «زميل»، فالموقف حسّاس وأقلّ حركة خاطئة كفيلة بضياع الميس شيرين منّا ومعها المستقبل الباريسي. ينبغي أن تعتاد هذا الصنف من النساء. معهن لا تنفع العجلة، بل أخذ كل ما يلزم من الوقت. إذا لم يكن في نيتها سوى السهر بعد قليلاً، فأرجو أن تبقى عاقلاً كي تترك لديها انطباعًا جيّدًا، على أن نؤجّل الهجوم إلى زيارة قادمة أو موعد لقاء نقترحه في ما بعد ...

عادت شيرين إلى الصالون بعد أن أغلقت الباب.

وقفت قبالة لقمان تنظر إليه بانفعال.

تردّدت لثانيتين أو ثلاث، ثم ارتمت عليه.

— ١٤ —

نظرت سلام إلى المسـؤولة وشعرت بعيـنيها تتّقـدان بالكراهية وبحنجرتها تغصّ برغبة القيام إليـها، تقبيلها في الفم وعضّ لسانها بقوة وإصرار حتى اجتزازه كاملاً ورميه على الأرض.

لا يهمّهـا كل ما قالته عن سليم، عنها، نبـرة التأنيب التي رافقت حديثهـا والعظة المسهبة التي دلقتـها على رأسها كالميـاه الغالية. بل فقط كيف حكت في النهاية عن نجيب وأشـارت إلى ما كانا يفعلانه سوية، بابتسامة ملأى بالتلميح اللئيم.

الحقّ على سلام. هي التي أثارت الموضوع معـتقدةً أنها إنما تردّ على هجومها الشرس اللئيم.

قالت لها المسؤولة : أخوك هجم على الطبيـبة النفسية التي كانت تعالجه مجانًا ــ وأصرّت على كلمة مـجانًا ــ ثم مزّق قميصـها عند الصدر وارتمى عليـها يقبّل ثدييـها. وحين صرخت وجـعلت تحاول إبعـاده عنهـا، راح يضربهـا ويضـرب رأسه فـي الحائط ويصـرخ باسمك.

قالت سلام : سوف أعتذر لها وأسعـى للتعويـض عليها بهدية.

قالت المسؤولة : وهل تعتقدين أنّ ذلك كافٍ؟ أنا بعثتُ في طلبك يا آنسة سلام كي تنيريني، فربما يكون عندك تفسير لسلوك سليم.

ردّت سلام : يا حبذا! لو كان بمقدوري أن أفهم ما يدور في عقله المضطرب، لما التجأتُ إلى مصحّكم. سليم ليس عنيفًا كما تعرفين. إنه كالأطفال، يُصاب بنوبات عصبية عندما يمنعه أحد عن تنفيذ رغبة ما...

قالت المسؤولة مقاطعة : أي نوع من الرغبات مثلاً، يا آنسة سلام؟

نظرت إليها سلام مستغربةً اللهجة المفاجئة التي اتخذها كلامها. لهجة فيها شيء من الاتهام، من التحايل واللفّ والدوران، كأنما هي نبرة محقّق يسعى إلى انتزاع اعتراف ما.

إن فشلت سلام في امتحان القوة هذا الذي اشتمّت بوادره، خسرت المعركة لا محالة وراح سليم الضحية وهي معه. إلامَ تراها تلمّح هذه المسؤولة الحقيرة؟ ينبغي لسلام أن تحرّك لسانها في فمها عشر مرات قبل أن تجيبها بما لا تحمد عقباه.

تنفّست عميقًا محاولةً رسم ابتسامة على شفتيها اللتين قاومتا بعنف إلى درجة أنّهما جعلتا ترتجفان، ثم قالت : ما أدراني ما كانت رغبة سليم حين انقضّ على الطبيبة. ربما عنّفته أو طلبت إليه أن يقوم بأمر ما، فما فهم

عليها أو تحسّس منها أو خطرت له خاطرة سوداء. تطرحين عليّ أسئلةً لا أملك مع الأسف إجابات عنها.

قالت المسؤولة : لا لزوم للمراوغة يا آنسة سلام. لقد اعترف الممرّض الذي يُعنى بجناح سليم.

سألت سلام مضطربة : وماذا اختلق وروى؟

قالت المسؤولة : لم يختلق شيئًا، بل أقسم أنك كنت في كل زيارة، تقدّمين له هدية كي يسمح لك بالدخول إلى سليم. لَقد قمتُ باللازم وطردتُه من عمله في المصحّ.

قالت سلام : أعرف أن الاحتكاك المباشر بالمرضى ممنوع. لكن من يلوم الأخت على شوقها إلى أخيها ورغبتها في البقاء معه وضمّه للحظات؟

قالت المسؤولة : ضمّه فقط؟

قالت سلام : لم أفهم سؤالك؟

قالت المسؤولة : أعني أن الممرّض لم يك غبياً وأنه استغرب هدوء المرضى لدى دخولك عليهم في كل مرة، فقرّر أن يتبيّن كنف الموضوع.

قالت سلام : ماذا تعنين؟

قالت المسؤولة : أعني أن الذي وضعت ثقتك فيه، خانك وفضح أمرك. أعني أن الذي كنت تعطينه رشوة كي يدخلك إلى سليم، كان يوهمك أنه يغادر، في حين أنه كان يقف مختبئًا على مقربة، كي يتفرّج على ما كنتِ تفعلينه وكيف كنت تعبّرين لأخيك عن لواعج شوقك إليه.

صرخت سلام : كذب! كل ما قلته كذب!

قالت المسؤولة : وتتهمينني أنا بالكذب! الكذّابة هي أنت! يا عيب الشؤم، تقومين بأشياء ممنوعة مع أخيك، لحمك ودمك، ابن أبيك وأمّك، ولا تخجلين من نفسك، بل تفتحين عينًا بلقاء. هل نسيت إلى من تتحدّثين؟

قالت سلام : لا، لم أنسَ أبدًا أني أتحدّث إلى سيدة «محترمة» تأتي بأعمال مشينة يقف لها شعر الرأس.

قالت المسؤولة : اخرجي الآن من مكتبي وإلا فضحتك بين الجميع.

قالت سلام : تفضحينني أنا؟ أنا التي ستفضحك يا قحبة يا حقيرة يا بلا أخلاق، وأخبر الجميع عن كل ما كنت تفعلينه مع نجيب وكيف كنت تجبرينه على أشنع المعاصي كي تبقيه في المصح...

ما عادت المسؤولة تحتمل صراخ سلام. قامت إليها تصفعها على فمها وتجرّها للخروج من مكتبها. فما كان من سلام إلا أن انقضّت عليها بكل ما أوتيت من قوة، أمسكتها بالشعر، ثم لوت عنقها حتى أوقعتها على الأرض. فارتمت عليها تضرب وتعض وتخرمش وتركل وتبصق وتلكم إلى أن خارت قوى المسؤولة فركنت تحتها وهدأت.

بقيت سلام جالسة عليها تلمّ أنفاسها وتفكّر في ما عساها ستفعل بسليم بعد أن كسرت الجرّة وما عاد في إمكانها إصلاح الكسر، ففتحت المسؤولة عينيها وأزاحتها عنها لتقوم بهدوء. رتّبت ملابسها، شعرها، ثم اتّجهت إلى الباب تفتحه والتفتت تقول مودّعة بابتسامة مفعمة بالمكر والخبث والعهر والدهاء:

ـ من حقّك أن تستشيطي غيظًا على هذه الشاكلة، فنجيب بالفعل فحل!

■■■ ■■■

رمت سلام أغراض سليم في الصندوق، ثم فتحت باب السيارة الخلفي وأجلسته. صعدت في الأمام وأمسكت بالمقود تشدّ عليه وتضغط وهي تكاد تفقع من الغيظ. أدارت المحرّك وانطلقت فوق الطريق الجبلية النازلة عائدةً إلى البيت.

ماذا ستفعل بسليم الآن، وما ستكون ردّة فعل نجيب حين سيراه؟ كانت تتوقّع كل شيء من المسؤولة، إلا أن تجبرها على استعادة أخيها وطرده من المصحّ. الحقّ كله على سلام. لو سكتت، فربما كان في إمكانها إغراؤها بمبلغ من المال. ذاك كان هدفها في الغالب والغرض من الإرسال في طلبها. ولو عاندت وتصلّبت، لكانت أرسلت نجيب لإغرائها والضغط عليها بهدف الإقناع...

لا! هذا ما لا تقدر عليه سلام. هذا ما ترفضه رفضًا قاطعًا ويفوق قدرتها على الاحتمال. أن تتصوّر رجُلها بين فخذي امرأة أخرى، أمرٌ كفيل بأن يفضي بها إلى الجنون، يودي بها إلى الهلاك.

نظرت إلى سليم في مرآة السيارة الصغيرة، فوجدته متّكئًا برأسه على الزجاج. لا ينام. هي حتما إبرة المورفين التي أعطاه إياها الممرّض كي تتمكّن من إخراجه والسيطرة عليه لحين وصولهما إلى البيت. ينبغي لها أن تمرّ بالصيدلية لشراء ما دوّنه له الطبيب من أدوية وعقاقير.

إن عادت ووجدت نجيب في البيت، فكيف ستشرح له الأمر وكيف تبرّر، وما عساها تقول؟ وإن سكن أخوها معهما، أفلن يتركها ويغيب كما كان في نية لقمان أن يفعل لو لم تقتنع معه

بضرورة وضعه في المصح؟

استمر هذا السؤال كالإزميل يدقّ أعصاب رأس سلام، وراح يزداد إلحاحًا كلما أمعنت في الطريق وقصرت المسافة التي تفصلها عن نجيب.

وماذا لو خففّت عنه الأمر ووضعت سليم في غرفة جانبية وأقفلت عليه بالمفتاح، فلا يعود يراه أو يشعر به طالما أن البيت فسيح وبه غرف منفصلة عن بعضها بعضًا. لن يغيّر ذلك شيئًا في الموضوع. هي متأكدة. ثمَّ إنّها لا تستطيع أخذ هذا النوع من المجازفة. ومن يضمن لها أن النتائج ستكون على ما ترجوه؟

لوريس ! لمَ لا تُسكن سليم معها وتقفل عليهما! أجل، هذا هو الحل الأمثل. تَضعهما معًا بحيث تتمكّن من الاعتناء بهما دفعة واحدة، وتأخذ هي راحتها في البيت مع نجيب. ولوريس، أتراها ستقبل أن يقيم معها غريب؟ أي غريب؟ تعرفهما مذ كانا صغيرين، هي وأخاها، فلمَ تمانع؟ أليس من الأفضل لها، هي التي أصبحت عجوزًا بنصف عَقل، أن تقيم مع من يسلّي وحدتها في نهاية العمر؟ وقريب لوريس، ماذا تفعل به؟ هو الذي يجيء صبيحة كل نهار أحد للزيارة، كيف تبرّر له وجود سليم وإقامته في غير بيته لا معها هي أخته، بل في بيت آخر مع جارة فاقدة العقل والوعي؟

يا الله! ما هذه الورطة الفظيعة وأية مصيبة وقعت على رأسها هذا النهار! ليتك متّ! ليت سليم مات مثلما مات مئات من الشباب! لكانت حزنت عليه وبكت وفقع قلبها، ربما، لكنها كانت انتهت بأن نسيته. كل الناس نسوا موتاهم بعد حين. التفتوا عنهم إلى مشاغل

الحياة بعد حزن وحداد، ثم أبقوا على ذكرى صغيرة في قلوبهم تنعرهم من حين إلى حين. أما هي، سلام، فمصيبتها التي تدعى سليم، ماثلة أبدًا أمام عينيها. تتحرّك وتمشي وتتنفّس وتأكل وتشرب وتلبس الثياب وتكلّفها مبالغ طائلة ووقتًا وتعبًا وجهدًا و... وها هي اليوم ستخرب حياتها بالمعنى الحرفي للكلمة، إذ ستُنهي بلمحة عين شهر عسل أمضته مع نجيب وظنّت أخيرًا أنه سيطول ويحوّل عيشتها من جهنّم إلى جنّة، ومن شقاء إلى نعيم.

وماذا لو أنزلته الآن من السيارة وأفلتته في الشارع؟ يضيع وتفقد أثره فتبكي عليه كما بكى العديد من الأهل على العديد من المخطوفين والمفقودين. سيرجع إليها، هذا أكيد! سيجده أحد ما ويعيده إليها. أو ربما عاد بمفرده دون أن يدلّه أحد على الطريق.

خمس دقائق على الأكثر وتصل سلام إلى البيت. زخّ العرق منها غزيرًا كأن سحابة محمّلة بالمطر توقفت فوق رأسها ودلقت حمولتها من الماء دفعة واحدة، فسحبت يديها عن المقود وراحت تمسح راحتيها بقميصها القطني. ينبغي لها أن تتوقف قليلاً كي تفكّر بروّاق. أوقفت سيارتها جانبًا، أطفأت المحرّك، والتفتت إلى الوراء.

كان سليم مقفل العينين. من إيقاع تنفّسه فهمت أنه يغطّ في نوم عميق. هكذا كان صغيرًا يغفو ما إن يركب السيّارة أو تضعه في أرجوحة تهتزّ باهتزاز رتيب.

ـ ١٥ ـ

تقلّب لقمان في السرير ينعم بملمس الشــراشف الناعمة الوثيرة على جلده الأسمر العاري. هي المرة الأولى التي تتركـه شيرين فيها نائمًــا، فلا توقظه كي يتناولا الفطور ويـخرجا من الـبيت معًـا حين مغادرتها إلى عملها.

رفع رأسه قليــلاً ونظر أسفل البطن متبسّمًا : صبـاح الخير يا «زميل». هه، هل نمـت جيّدًا؟ أنا نمتُ كـالملاك والفضل لك. البـارحة بيّضتَ وجهَ صاحبك مع شيرين. أقسم بشرفي انك صديقي الوحيد في هذا العالم وانك أمير. ها أنت صرت تسيطر على نفسك وتتحكّم في ردّات فعلك وتتصرّف كما يليق بك وبي، حتى جعلتَها تبكي لذة وحباً واضطراب حواس.

رفع عينيه يتأمّل الغرفة. لقد حفظها عن ظهر قلب. حفظ حتى ما تحتويه خزانتهــا من ملابس وأغراض وعطور، إذ طالما جلس يتفرّج عليها تتزيّن بعـد خروجها من الحمّام. يأتي إليها مســاءً بعد عملها، ثم يمضي الليل في سريرها، حتى اعـتادته وصارت لا تطيق بعاده، فتتصل به ما إن يغيب عنها يومًا أو يومين.

التـفت إلى السـتـارة المقفلـة في وجه النهــار وحزر من الضـــوء الباهت الـذي كانت تسمح بمروره، أن السـماء لم تزل على غـيمــها

الحائر الكثير. بودّه لو يفتحها كي يتفرّج على البحر، لكن لا جلد له على النهوض. وقع نظره على ورقة مكتوبة بخطّ شيرين. رفعها وقرأ : اترك المفتاح لدى الناطور. إذا لم يكن لديك عمل، فمرّ بي على الورشة ظهرًا لنتغدّى معًا.

نظر إلى ساعته فوجدها الحادية عشرة. ينبغي له أن ينهض، يأخذ حمّاما ويشرب القهوة، ثم يذهب إليها. لا ينبغي أن يرفض دعوتها إلى الغداء، حتى لو لم يكن له جلد أو رغبة.

دخل لقمان المطبخ وهو لم يزل مبلول الشعر والجسم. يمشي عاريًا حافي القدمين كي يثبت لذاته أنه يجول في مكان أليف يمتلك عليه كامل الحق ولا يُشعره بأنه ضيف عابر أو دخيل. حين يمشي الإنسان عاريًا في مكان ما، فهو يفعل لسببين: إما لأنه يشعر بامتلاك وأمان مطلقين، وإما... ماذا؟ إما لأن الأبرص كمن له!

تذكّر الأبرص وما كان يفعل حين يُخضع ضحاياه للتعذيب. ربما هما صغر قامته وبدنه الهزيل اللذان أعطياه فكرة إجبارهم على خلع ملابسهم والاستحمام والبقاء عراةً. أجل، لو كان للأبرص جسدُ فحل كما للقمان، لما كان عرّاهم كي يمارس عليهم تفوّقه الوحشي. أغلب الظنّ أنه كان يدخلهم الحمّام كي يعيدهم إلى مرحلة الطفولة، كي يشعر بأنهم أولاد، وبأنه هو الرجل عليهم وصاحب الأمر والنهي. كيف لم يخطر هذا ببال لقمان من قبل؟ ربما لأن الأبرص كان يتحدّث كنبيٍّ يغرف من سلال الخطأة فاكهة فاسدة، ثم يرميها إلى النار كي تحترق في الهشيم. هذا ما كان يردّد ويقول. لكن لقمان فطن اليوم فجأةً إلى أن وحشية الأبرص لم تكن سوى وجهٍ

آخر من عُملة خوفه وهشاشته وشعوره بالنقص. وإلا فما الذي كان يمنعه من مقاربة النساء وما الذي جعله يقع في حب امرأة كسلام...

فتح لقمان خزانة المطبخ ليعدّ قهوته، بل النيسكافيه بالحليب، لأن الميس شيرين صارت تخاف على معدته من القرحة وتلف الأعصاب. أذاب قطعتي السكّر في الكوب واتكأ على المجلى يشرب ويتأمّل في ما تحتويه الخزانة من أغراض.

إن تركته اليوم ينام في الشقة وسلّمته المفتاح، فهذا معناه خطوة أولى ستوصله عمّا قريب إلى المكوث في بيتها لفترات ستطول تباعًا إلى أن تبلغ أيامًا وربما أسابيع. إن اقترحت عليه ذلك، قابلها بالرفض والصدّ. لا ينبغي له أن يخضع لرغباتها وإلا كبت وانطفأت مع مرور الوقت. إذا استقرّت العادة بينهما، ألفته، وإذا ألفته كسب استقرارًا في العلاقة وخسر اتّقاد عواطف كفيلاً بجعلها تتخذ قرارات لا علاقة لها بالرويّة واتزان العقل. وإن تروّت شيرين وتفكّرت في ما تفعله، فطنت إلى ضرورة الافتراق عنه، ذات يوم، وتنبّهت للهوّة الشاسعة التي تفصل بينهما.

لن يتركها لقمان تصل بمفردها إلى مثل هذا الاستنتاج. سيستمرّ في تطبيق الخطة التي اتبّعها منذ البداية معها : أن يبادر هو إلى الهجوم بدل الترقّب والانتظار، فيُخرج مخاوفَها وتساؤلاتها إلى النور كي تبدو خارجة عنها، وكأنه هو صاحبها، وكي تعمَل على محاربتها والقضاء عليها ودحرها كأشرس عدوّ. هكذا جعلها تستبقيه أول مرة على العشاء. وهكذا سيدفعها إلى التخلّص ممّا يعوقها كي تسقط ناضجةً في وعاء رغبته موكلةً أمرها وحياتها إليه...

■■■ ■■■

وقف لقمان على كورنيش البحر وجعل يتلفّت ذات اليمين وذات اليسار في انتظار سيّارة تقبل إليه سريعًا بعد أن شعر أنه تأخّر على موعده مع شيرين.

صرخ للتاكسي الفارغ، ففرمل. صعد وأشار عليه بالعنوان. فرح السائق لهذه المفاجأة، ثم قال معبّرًا عن فرحته تلك : هل استفقتَ أستاذ على الهزّة ليل أمس؟

أجاب لقمان : أية هزّة ومتى وقعت وكيف؟

قال السائق : الدنيا قائمة قاعدة والناس كلهم اليوم في هذه السيرة. حوالى الثانية بعد منتصف الليل، صحوتُ مع امرأتي وكان السرير يهتزّ بنا كأن أحدًا أمسكه وجعل يحرّكه بكل عزم. الأولاد استفاقوا أيضًا ومن ذعرهم صاروا يصرخون لأن الجدران جعلت ترتجّ حتى خلناها ستتصدّع وتقع علينا...

فكّر لقمان أنه لم يلحظ شيئًا مما جرى لأنه كان في السرير فوق شيرين. وربما كانت متانة أساسات البناية هي التي جعلت وقع الزلزال مخفّفًا بحيث لم يشعر به أحد من الجيران.

تابع السائق يقول : بعد سنوات الحرب والبؤس والأزمة الاقتصادية والنفايات الكيميائية التي يلقونها في البحر والأغذية الفاسدة التي يوزّعونها في السوق، لم يكن ينقصنا إلا الزلازل لكي تكتمل معنا. هذا هو غضب الربّ. الربّ لا يضرب بحجارة، لكنه يجرّب عباده متوسّلا طرقًا غير مباشرة علّهم يندمون

ويستعيذون...

وقف السائق وأشار للراكب الذي صرخ له بوجهته، أن اصعدْ في الخلف. ثم بعد عدة أمتار، فعل الشيء نفسه مع راكب آخر أومأ له.

نظر إليه لقمان متعجّبًا من وقاحته تلك. كيف تُصعد ركابًا وقد أخذتُك تاكسي فحجزت كل السيارة؟ لكنه عدل عن الكلام، إذ تذكّر أنه تأخّر وألا جلد له على فتح باب المماحكة والنقاش.

أدار السائق المسجلة فلعلع صوت مغنّ ترافقه ضجة وتشويش تبيّن منهما لقمان أنها إنما حفلة عرس أو مناسبة من هذا القبيل، يتكاثر فيها زعيق أولاد وعبارات تشجيع وإطراء وتطريب.

قال السائق مفاخرًا : هو صوت ابن أخي والحفلة هذه هي حفلة عرسه. منذ زمن وهو يحاول أن يصبح مغنيًا، حتى إنه ذات ليلة حاول الانتحار لأن أباه كان يمنعه من الغناء.

قال أحد الراكبين الخلفيين : صوت ابن أخيك ممتاز. لكن لو خفضته قليلا، لكان ذلك أفضل بكثير.

شكره لقمان في قلبه، ثم التفت إليه وراهن في سرّه على أنه طالب جامعة من أولئك الذين لا يستمعون إلا إلى أغاني الروك.

أطلق السائق مزماره على مداه، ثم أرفق حركته تلك بكمّ من

الشـتائم والسـباب والإشـارات والبصـاق حين دخلت السيـارة في عجقة سير خانقة بدا أنها ستطول.

انحنت خـادمة سـريلانكية تسـأل السائق إن كـان متـجهًـا إلى منطقة كـذا. سألها إن كـانت ستدفع أجرة التـاكسي كاملة، فـهزّت رأسهـا قائلةً إنها تدفع أجرة راكب واحـد لا أكثر ولا أقل، فانفـجر بوجـهـها قـائلاً إنّه لا يُصـعـد في سـيارته هـذا النوع من الزبائن ونصـحـها أن تبـحث عن طائرة مـروحـيـة إذا أرادت أن تصل إلى وجهتـها البعـيدة تلك قبل أسبـوع، منتهيًا إلى أن شـعب سريلانكا صار يتصرّف لا كالخدم، بل كالأسياد، وأنه ويل لمن وقع تحت كيد عبد أسود لأن التمرّد هو طبع الأسود اللئيم...

تأكّد لقمان من أن ظنّه في الراكب الخلفي كان في محلّه، إذ علّق على كلام السـائق قائلاً : هذه عنصرية يا عمّ ! فمـا كان من «العمّ» إلا أن استدار عـليه والشر يقدح من عـينيه وهو يجعر : عمّ؟ عـماك الله. هيـا انزل من سـيارتي... فنـزل الشاب وأطبق الـسائق البـاب بعنف ثم تابع : شـباب آخـر زمن! واللهِ خـرج شيء من مؤخـرتي يقول وَعْ...

سلخ لقمان ظهره المبلول بالعـرق عن جلد المقعد الأمامي بعد أن طال وقوف السيارة في عجقة السير، علّه يعرّضـه لشيء من الهواء. فكّر أن الطقس هذا إذا استـمرّ على قيظه وعبـوس غيمه، فـسيكون كفـيلاً بإيقاع زلزال عظيم. رفع كـفّه يحمي أذنـه من الشمس التي تصبّ نارها في رأسه منذ خرج من البيت وركب السيارة، وخطر له أن ينزل كي يتابع سيرًا على الأقدام.

لكنه حسب المسافة المتبقية الواجب قطعها، فوجدها لم تزل طويلة، بل أطول بكثير ممّا قطعه في التاكسي حتى الآن. سينتظر قليلاً بعد . إن استمرّ الزحام على جموده وكثافته، نزل وعاد إلى البيت مباشرةً ثم اتصل بشيرين وشرح لها الأمر...

لا يعرف كيف رأته، لأنها بدت راكضة من بعيد وهي تناديه باسمه وتلوّح له. انحنت على نافذة السيّارة لتقبّله، ففتح لقمان الباب ونزل يستقبلها بما أن السير لم يزل على حاله واقفًا، وإن تقدّم فيبطء سلحفاة.

مارينا! ما هذه المفاجأة السعيدة ومنذ متى تستفيقين في الصباح الباكر وتجولين في الطرقات؟

من خلال لغة غريبة عجيبة تتكوّن من بضع كلمات عربية أتقنتها في أشهر والكثير من إشارات الإيماء، فهم منها أنها تركت الكباريه الذي تعمل فيه منذ حين، وأنها خطبت أو تزوّجت و.... وما عاد لقمان يفهم على إنكليزيتها التي راحت ترطن بها من دون حساب.

قال الراكب الخلفي الثاني الذي كان جالسًا قرب الشبّاك : تقول لك إنها خطبت شاباً من البلد، وإنها على وشك السفر معه لعقد زواج مدني ولإمضاء شهر العسل هناك.

التفت إليه لقمان، فوجده ينظر إلى مارينا مبتسمًا ومشجّعًا إياها على متابعة الكلام بعد أن انتدب نفسه بنفسه لأداء دور الترجمان.

إلى أين تسافرين سألها الراكب، فأجابته وترجم للقمان قائلاً : ستسافر إلى أوروبا ومحطتّها الأولى ستكون باريس.
ضحك لقمان وأجاب : باريس دفعة واحدة يا مارينا؟ الله الله!

تابع الراكب حديثه بالإنكليزية مع مارينا، ثم قال متوجّها بالكلام إلى لقمان : تقول إنه يعمل تاجرًا وإن أحواله المادية ممتازة وإنه شاب وجميل.

نظر لقمان إلى الراكب، ثم عقد حاجبيه بما معناه : وما دخلك أنت كي تطرح عليها أسئلة من تلقاء نفسك؟ لكنه حين حرّك لسانه، خرجت من فمه هذه الكلمات : شكرًا لك على الخدمة، لقد أتعبناك.

لم يكفِ هذا التلميح الراكب، فما كان منه إلا أن فتح الباب ونزل من السيارَة كي يقف معهما ويتابع الكلام مع مارينا التي أخذت تردّ عليه معتقدةً أنه أحد أصدقاء لقمان.

نظر لقمان إليه لا يصدّق عينيه، ثم اقترب منه ومدّ يده إلى صدره فدفعه قليلاً وهو يقول : شكرتُك وانتهينا، ما بك ما عدتَ تحلّ؟

قال الراكب : أنا لا أتحدث إليك، بل إليها! ثم تابع كلامًا بالإنكليزية جعل مارينا تفقع بالضحك وهي تنظر إلى لقمان وتهزّ برأسها.

صعد حليب النَوَر إلى رأس لقمان حين رآه يهزأ به، فأمسكه من كتفيه ثم حشره في السيّارة وراح يوجّه إليه اللكمات.

زمر السائق لهما كي يصعدا لأن السير تحلحل والسيارات التي أمامه ابتعدت، بينما جعلت التي خلفه تطلق مزاميرها على مداها كي تحثّه على التقدّم. فما كان منه إلا أن نزل بدوره وهو يصرخ : إذا أردتما أن تتخانقا فافعلا، ولكن ليس على حسابي. ادفعا قبلاً، ثم اقتلا بعضكما بعضاً إذا شئتما!

ازدحم السير مجددًا لأن الناس تحلّقوا حول لقمان والراكب يسعون إلى الفصل بينهما، فيما كانت مارينا التي فهمت أخيرًا ما يجري، تصرخ وتضرب بحقيبة يدها رأس الراكب إياه.

تدخّل مشاة عابرون من هنا، فدفعوا لقمان داخل السيارة، أخذوا الأجرة من الراكب المدمّى وأعطوها للسائق الذي أدار محرّكه على عجل بعد أن راحوا يضربون سقف السيارة كي يحثّوه على الإسراع.

■■■ ■■■

رآها لقمان من البعيد واقفةً ضمن مجموعة من الشباب، فلاحظ أنهم جميعا يرتدون الجينز ويضعون قبعات. ما هو هذا الاختصاص الغريب الذي يجبر الناس على الحفر في الأرض، تحت شمس حارقة، وسط هذه الكمية الهائلة من الغبار؟ ولماذا؟ لإخراج حجارة وعظام وشظايا فخّار وأدوات أكلها الصدأ والتراب. سبحان الله، لا أحد يفهم ما الذي يدور أحيانًا في عقول الناس...

حيّا لقمان شيرين فوجدها عابسة على غير عادتها. ظنّها غاضبة لأنه تأخّر، لكنه ما إن فتح فاه كي يشرح لها ما جرى، حتى قاطعته متأسّفة ومعتذرة عن عدم تمكّنها من الغداء معه، لأن أمرًا طرأ وهي مضطرة إلى التباحث مع الزملاء. قال لها إنه غير مستعجل وإن لديه متّسعًا من الوقت وباستطاعته انتظارها، فهزّت رأسها بعصبية وعادت لمتابعة النقاش.

قال شاب : استغلّوا انشغال الناس والصحافة بالهزّة الأرضية، كي يرسلوا إلينا آلية البوكلين والجرّافة.

قالت فتاة : لم يكفهم أنهم اقتلعوا جدرانًا من العصر الهلينيّ وحيطان الحمامات الرومانية، بل هم أوقفوا آلياتهم فوق الموقع الذي تمتدّ إليه المقبرة الفينيقية التي اكتشفناها منذ بضعة أيام.

قالت شيرين : سأتّصل بالمسؤولين.

فنظر إليها الشاب مستغربًا وأجاب : ما بك ميس شيرين؟ ومن تعتقدين أنه أرسل البوكلين وأعطى الأوامر بالجرف؟

قالت شيرين : والصحافة؟

فـردّ رجل يضـع النظارات : بسـبب الحـملة التي قـامـت بها الصحافة، وعدنا المسؤولون، عـلى صفحات الجرائد والمجلات، أنهم سيسمحون بإجراء عمليات التفكيك والترقيم والتصوير الفوتوغرافي، كي تُنقل الحجارة ويُعاد تركيبها. والنتيجة؟ ها هم جرفوا كل شيء حتى قبل أن نتمكّن من ترقيم حجر واحد.

قال الشاب : ما همّهم من الآثار وما يعنيهم تدمير ما عمره آلاف السنين. المطلوب هو الانتهاء من مشروع إعادة إعمار الوسط التجاري، كي تُستثمر الرساميل فتعود عليهم بالأرباح في أقصى سرعة ممكنة.

قالت الفتاة : بعد أن أظهرت الحفريات أن المدينة أسست قبل الميلاد بنحو خمسة آلاف عام وأنه تمّ الكشف منذ البدء بعمليات التنقيب عن ٨٠ ألف متر مربّع من الحفريات الأثرية التي أظهرت طبقات متعاقبة من الحضارات الكنعانية والفينيقية والهلينية والبيزنطية والرومانية والمملوكية والعثمانية، وقّع المجلس النيابي ووزارة الثقافة اتفاقًا مع منظمة الاونيسكو حول ضرورة حماية كل هذه الآثار. لكن لم تمض أسابيع حتى أصدر المجلس النيابي نفسه، ودون أن يرفّ له جفنٌ، أمرًا بردم حفرة من أهم الحفر الأثرية، فغطى الردم المعالم وأعمدة رومانية بكاملها، لكي تُستبدل بساعة وزهور.

قال الشاب : أوتدرين ميس شيرين بما أجاب أحد المسؤولين في

ردّه على سؤال صحافي : «طمرنا الآثار بالرمل وأكياس النيلون للحفاظ عليها، وسنزرع محلّها زهورا تعكس وجهًا حضاريًا»... وجهًا حضاريًا قال ! وعن مصير الاتفاقية المعقودة مع الأونيسكو، أجاب : «المشروع يكلف أموالاً ولا نريد أن ندفع. العالم في واد وأنتم في وادٍ آخر. هناك حال تقشّف في البلاد ويجب شدّ الأحزمة»...

قال رجل النظّارات : والموقع الأثري الذي ردموه كي يقيموا موقفًا خاصًا للسيارات؟ و... و...

قالت الفتاة : أجل، يحكون عن حالة تقشّف ما إن يتعلّق الأمر بمشروع يفيد مصلحة البلاد! أما فضائح السرقات والنهب والاختلاس التي يقوم بها أعضاء الحكومة، فلا تحتاج إلى تقشّف أو حساب

قال الشاب: انتهينا! وما فائدة الكلام! وماذا تنتظرون من بلاد لا تحترم تاريخها...

فقاطعته الفتاة تقول : بل فقدت ذاكرتها حتى إنّه لا أصل لها ! خلص، قرفت! أما كان يجدر بي أن أختار اختصاصًا آخر، بدل علم الآثار؟

قال الشاب : اختصاصًا في التجارة مثلاً أو في قطاع الخدمات...

انفضّ المجتمعون وابتعدوا مطأطئي الرؤوس يجرّون أقدامهم كفيلق عسكر مهزوم.

التفتت شيرين إلى لقمان تنظر إليه بقهر وتسأل :

ـــ قل لي، ما الذي جعل والدي يولد هنا، وماذا جئتُ أفعل أنا في هذي البلاد؟!

— ١٦ —

انزعجت سلام حين وجدت أن دورها قد حان وأن هناك من يقف في الخلف بانتظار حلول دوره من بعدها. كان في ودّها أن تكون وحيدة كي تأخذ راحتها في الكلام. إلا أن الصيدلي راح يحدّق إليها بنفاد صبر، فطلبت إليه لفافة من القطن، ثم دفعت وخرجت.

أين تقع على صيدلية فارغة، أي لا زبائن فيها، ويكون صاحبها مرنًا ولا يُكثر من الأسئلة ولا يسكن في منطقة قريبة من حيّها بحيث يُستبعد أن تلتقي به؟

أدارت محرّك السيارة ثم ألقت نظرة سريعة إلى الساعة. لا ينبغي لها أن تتأخّر؛ فسليم لم يتناول عشاءه بعد، ونجيب لن يتأخّر في العودة. تذكّرت صيدليًا عجوزًا كانت تقصده في الطرف الآخر من المدينة لأنه استمرّ يفتح خلال الحرب، بالرغم من أن صيدليته كانت قائمة على خطوط التماس. كانت تذهب إليه لأن بضاعته من الأدوية قلّما نفدت، ولأن لوريس كانت تحتاج إلى كمّ هائل من عقاقير النوم وعلاج أمراض الأعصاب.

كان واقفًا خلف صندوق الحساب يحدّق من خلف نظارتيه السميكتين إلى علب الأدوية ويضرب أسعارها بأصابعه المنعقدة

المرتجفـة. تنّفست سلام. ها هو يتـحدّث إلى زبونة يظهـر أنها على وشك الانصـراف. دخلت وحـيّت، ثم وقـفت تنـتظر أن ينتـهي من حديثه.

قـال الصيـدلي : الـ Xanax ليس منوّمًـا. إنه دواء ضد حـالات القلق والرهاب ،وله تأثيرات جانبيّة مـضرة إن استمررتِ في تناوله أو انقطعتِ عنه دفعة واحدة.

قالت الزبونة : لكنه أراحني أكـثر مما فعل بي الـ Prosac. ثم أن جـارتي تـتناوله منذ سنوات وهـو لم يضـرّها في شـيء، بل على العكس...

قاطعها الصيدلي بعصبـية قائلاً: هل ستعلّمينني مهنتي يا مدام؟ ثم إنك تسـتطيعـين الشراء من عند غـيـري. أنا لا أبيع أدوية يشكّل تناولها خطرًا على الصحـة... لقد أعطيتُك Tranxène10 وهو مهدّئ للأعصاب ومفيد للنوم أيضًا. عودي إليّ بوصفة من طبيبك، وأبيعك Xanax وProsac بل سُمّاً إذا أردت الانتحار!

غضـبت الزبونة ثم رمت كـيس الأدوية التي شرتهـا منذ لحظة وهي تقـول : أعـد لي مـالي؛ مـا عـدتُ أرغب في الشـراء. فـفـعل الصيدلي، وتابعَت تقول وهي تهمّ بالخروج :

ــ ثم ما لك أنتَ يا رجل؟ أأخي أم أبي أم زوجي أم ابن عميّ كي تخاف على صحتّي أكثر ممّا أخـاف أنا عليها؟ أنا حرّة في تناول ما أشـاء! أما كـان أجدر بك أن تقـول منذ البـداية إنك غيـر راغب في

https://facebook.com/groups/abuab/

البيع؟!

رفع الصيدلي نظارتيه السميكتين عن عينيه، ثم تناول محرمة من جيبه يمسح بها جبينه النديّ وعينيه الدامعتين. أعاد وضع النظارات ثم تنفّس عميقًا كي يكتم غيظه والتفت إلى سلام يسألها ما مطلوبها.

ابتسمت سلام تبحث عمّا تعلّق به حول ما جرى أمامها، علّها تكسب وقتًا إضافيًا يساعدها على إيجاد الزاوية المناسبة التي تدخل منها إلى الموضوع، فقالت : بات كل الناس اليوم مرضى بالأعصاب.

هزّ الصيدلي العجوز رأسه بما معناه : يكون من الأفضل لو نتفادى الكلام على الموضوع. ثم كرّر سؤاله مرة أخرى قائلاً : عفوًا، ولكن لم تقولي لي ماذا تطلبين.

قالت سلام : يبدو أنك لم تعرفني يا سيّد توفيق. أنا سلام. لطالما جئتُ إليك خلال الحرب لشراء أدوية للسيدة لوريس، أتذكر؟

قال الصيدلي وهو يضرب جبينه بكفّه : بالطبع! لا تؤاخذيني، هو العمر حتمًا وعيني المصابة بالمياه الزرقاء. لقد أصبحتُ كهلاً بالفعل وصارت ذاكرتي تخونني.

قالت سلام : ولِم لا تسلّم العمل لأولادك وترتاح، أما تعبت بما فيه الكفاية؟

قال الصيدلي : أولادي؟ يا حرام! كلّهم سافروا. في البداية، كنت غاضبًا عليهم لأنهم تركوني وحيدًا وأنا عجوز. اليوم، كلما كلّمني أحدهم، أقنعته بضرورة البقاء حيث هو وبعدم الالتفات إلى الوراء... الحاصل، كيف حالك وكيف صحة السيدة لوريس؟

قالت سلام : أنا بخير والحمد لله. لكن لوريس...

ثم سكتت وانقطع نفسها وتهدّج صوتها وعلقت غصةٌ في حنجرتها تمنعها من متابعة الكلام.

أسرع الصيدلي إليها بكوب من الماء، ثم أجلسها على كرسي وهو يهدئ من روعها بعبارات تدعوها إلى التصبّر والتسلّح بالإيمان. وحين هدأت، راح يسألها أن تخبره عمّا بها كي تفرّج عن كربها ويرى هو إن كان باستطاعته مدّها بيد العون.

قالت سلام : قسمًا بالله، لوريس كوالدتي. لكنني ما عدتُ قادرة على المزيد.

سأل الصيدلي : أما زالت تعاني فقدان ابنها بعد كل هذه السنوات؟

قالت سلام : يا ليت. فهي ما إن بدأت تنسى وتعود إليها قابلية الحياة، حتى صارت تشكو نوبات ألم فظيعة في الرأس. لم أترك طبيبًا إلا واصطحبتها إليه. لم أبخل عليها، وأنت تعرف يا سيد

توفيق ما معنى بلوة الأطباء في هذه الأيام وما كلفة الطبابة والأدوية والمستشفيات. المهم: اكتشفوا أنّ بها تورُّمًا خبيثًا في الدماغ، فأجرينا لها عملية فقدت البصر على أثرها. إلا أن نوبات الألم ما انفكّت تعاودها فتبقيها طريحة الفراش...

قال الصيدلي : لا حول ولا قوة إلا بالله. ها هو قد أفقدها الولد والبصر، لكنه رزقها ببنت من بنات الحلال. جازاك الله يا سيدة سلام، فمن كان مثلك آدمياً وابن أصل وصاحب رحمة، أصبح عملة نادرة في هذه الأيام. هه، لو تقولين لي بماذا يمكنني مساعدتك في هذا الحمل الثقيل.

قالت سلام وقد التمع في عينيها بريق الخداع : كلما احتاجت إبرة مورفين لتسكين آلامها، اضطررتُ إلى أن أقصد الطبيب كي يكتب لي وصفة جديدة. وكلما فعل، جعلني أدفع ثمن المعاينة كاملاً...

قال الصيدلي : فسدت الأخلاق وتحوّل الأطباء تجّارًا!

قالت سلام : ها إني تركتُها في البيت وحيدة تصرخ من ألمها، وقلت لنفسي أقصدك فربما حنّ قلبك وأعطيتني المورفين من دون وصفة مكتوبة بيد الطبيب.

سكت الصيدلي متفكّرًا، ثم نظر إلى سلام حائرًا في ما يجيب. فما كان منها إلا أن وقفت وهي تقول : لا بأس. أراك محرجًا وأنا

أعرف أنك رجل حـق ولا تحبّ التلاعب بالقـانون. اعذرني، أتعـبتُك مـعي. ينبـغي لي أن أعود. إذا تأخّـرت عليـهـا، أخشى أن تصـاب بمكروه أو تأتي ما لا تُحمد عقباه.

لم يتركها الصيدلي العجوز تنصرف. وبعد أن تصبّب العرق منه كمـيات، قرّر أن يـبيعـها ما جـاءت من أجله. بل هو أضاف عـرضًا مفتوحًا يدعوها إلى المجيء إليه، كلّما احتاجت المزيد.

دفعت سلام حساب ما أخذته من مورفين وإبر وشرائط لاصقة ومـحلول مطهّـر، ثم انصـرفت وهـي تشكر الصـيـدلي وتدعـو له بالصحة وطول العمر.

— ١٧ —

حملت سلام صينية الأكل بعد أن وضعت كيس الصيدلية تحت إبطها، ونزلت على مهل الدرجات الخمس الصغيرة التي تفصل مدخل البيت عن القبو. ألقت الصينية على الأرض، ثم أخرجت مفتاح القفل من جيبها وفتحته.

فاجأتها رائحة العفن والرطوبة كما في كل مرة، فتسمّرت قرب الباب الذي أغلقته وراءها بانتظار أن تعتاد عيناها قليلاً الظلمة الحالكة قبل أن تتلمّس طريقها إلى الشمع وسط هذا الركام من الصناديق والأغراض.

رحمك الله يا أبرص. ها أنت سرقت كل هذه البضاعة وراكمتها وما استفدت منها شيئًا بعد أن غادرت الحياة. لم لا تبيعها سلام وتحصل بذلك على قرشين نظيفين؟ ستجنّ لَوريس. فسلام لم تجرؤ على مطالبتها بمفتاح القبو. ظلّت تبحث عنه لساعات بعد أن عادت مع سليم من المصحّ، حتى وجدته. وافقها الحظّ فوقعت عليه مصادفةً مختبئًا تحت وسادة لوريس. وإلا لكانت اضطرّت إلى إسكان أخيها في البيت، فكان نجيب الآن في خبر كان.

أشعلت سلام عود الكبريت فانطفأ. أشعلت عودًا ثانيًا، فأخذت شعلةُ الشمعة النارَ وراحت تتراقص عاكسةً ظلالاً غريبة على

الجدران. اتجّهت نحو سليم، فوجدته مفتوح العينين مستلقيًا فوق بطانية على الأرض. سلخت الشريط اللاصق عن فمه برفق، كي لا يؤلمه، فرفع يديه مشيرًا إليها أن تنزع الحبل الذي يوثقهما وقدميه.

فكّت سلام قيود سليم، ثم جعلت تفرك آثار الحبل في أطرافه كي تسري فيها الدماء. حملت الصينية ووضعتها على فخذيه كي يبدأ بتناول الطعام بعد أن أجلسته وجعلته متكئ الظهر إلى الجدار. أعاد سليم الصينية إلى الأرض، ثم عقد حاجبيه وقلب شفتيه وراح يحدّق بحرد إلى الأرض. وضعت الملعقة في الصحن وغرفت، ثم رفعتها تحشرها في فمه، فرفع يده يضربها ووقع محتواها على صدرها. نظر سليم إليها خائفا من أن تعاقبه بالضرب، فما فعلت، بل أبعدت صينية الأكل واستلقت بجانبه

على الأرض. عاد سليم يتمدّد بجانبها، ثم راح يلعق بلسانه ما وقع على صدرها من طعام. أغمضت سلام عينيها وتركته ينزع ما يحول بينه وبين الوصول إلى الثدي.

ستتركه قليلاً، ثم تمدّ يدها إلى الكيس على مهل، تسحب إبرة المورفين وتغرزها في ذراعه. هكذا ينام الليل هانئًا، فتعاود إيثاقه مخافة أن يستيقظ قبل الأوان، أو يأتي ضجةٌ تنبّه نجيب لوجوده في القبو. حَسَنٌ أنّ الصيدلي صدّق حيلتها فأعطاها ما طلبته ووعد أن يمدّها بما ستحتاج لاحقًا إليه. وإلا فكيف كانت ستسيطر على سليم وتبقي وجوده معها سرًا لا يكتشفه أحد. ها هي تطعمه وتغسله وتهتم به، فلا يضيره أن يعيش في العتمة أو أن تبقيه مكموم الفم موثق الأطراف طالما أنها تعالجه بالمورفين، فيبقى نائمًا

طول الوقت لا يشعر بشيء.

لا ينبغي لها أن تطيل. قالت لنجيب إنها ستحمل العشاء إلى لوريس، تبقى معها قليلاً، ثم ترجع إليه. تركته في المختبر بين أعشابه والجرذان، وانسحبت على مهل وهي تعرف بأنه لم يعر كلامها انتباهًا. لا يصحو ويحادثها إلا عندما يجوع. يناديها فتعد الطعام ويأكلان. يتركها لساعة إضافية أو ساعتين حتى يتعب، فيجيء إليها كي يدخل في سريرها ويكافئها على انشغالها عنه وتركها إياه يعمل بهدوء.

لم تشعر سلام بسليم إلا بعد أن أصبح فوقها. نفضته عنها مذعورةً كيف سهت وتركته يصل إلى ما تحرّمه عليه منذ أسابيع، فما كان منه إلا أن عاد يتمدّد فوقها وهو يثبت ذراعيها في الأرض. حاولت سلام القيام من تحته، لكنه عاند وصرخ، فخافت أن تقاوم أكثر فيزداد صراخه ويفضحها أمام نجيب. وضعت يدها على فمه وهي تتبسّم له، ثم أعادت رأسه إلى كتفها وهي تمسح على ظهره وكتفيه. مدّت ذراعها تتلمّس كيس الصيدلية، ثم أدخلت كفها فيه تسحب الإبرة على مهل، ترفعها وتضربها بقوة في ذراع سليم.

■■■ ■■■

على غير عادته، وجدته ينتظرها في ردهة الاستقبال. اعتذرت لأنها تأخّرت متذرّعة بلوريس التي صار لها طبع الأطفال الذين يخافون البقاء في العتمة وحدهم، ثم دخلت المطبخ وهي تنبئه بأنها لن تتأخّر في إعداد العشاء.

ناداها نجيب. لستُ جائعاً قال. نظرت إليه سلام مستغربة سحنته المبلولة بالعرق ووهن صوته. سألته إن كان متعبًا، فلم يجب وقام يجرّ خطاه إلى غرفة النوم. أيقظيني بعد ساعة، قال لها، سأتمدّد قليلاً كي أرتاح.

قامت سلام تدور في البيت وتهتم بأموره. رفعت بعض الأثاث كي تكنس. وحين انتهت، نظّفت الغبار ثم جاءت بدلو مملوء بالماء وراحت تمسح.

ضايقها الخفّ، فخلعته وجعلت تمشي حافية القدمين. انتقل بعض من برودة البلاط إلى جسدها، فوقفت تضغط على كليتيها بيديها الاثنتين. أصغت جيّدًا كي تتأكّد من أن ما سمعته من ضجيج ليس مصدره القبو، ثم سخرت من نفسها ومن قلقها المبالغ فيه.

الآن، يحلّق سليم في سابع سماء. ضربت الإبرة في ذراعه وضغطت، وحين رفعته عنها وجدتها وقد فرغت من محتواها. خافت أن تكون قد بالغت في كمية المورفين لأنه أصيب بنوبة تشنّج وراح يبعط ويطرق رأسه في الأرض. لكنه عاد وهدأ. فاقتربت منه ووضعت أذنها على صدره، وحين اطمأنّت إلى نبض قلبه، قامت تطفئ الشمعة وتركته.

فاجأها بهجومه العنيف، فخافت وانفعلت وحقنته. منذ فترة وهو ما عاد يرضى بالثدي، وهو يحاول معها أمورًا أخرى يقف لها شعر الرأس، وهي تتساءل من أين تعلّم هذه الأشياء وتنسى أنه أصبح رجلاً مكتملاً لا ينقصه إلا صواب العقل. كيف تردّه عنها بعد الآن؟ الأفضل أن تبقيه موثقًا فتطعمه بيدها و... وماذا لو جعل يصرخ وسمعه نجيب؟ لا بأس. تحقنه أوّلاً بالمورفين، وحين يرتخي وتزوغ عيناه، تنزع عن فمه ما يكمّه، فتطعمه وتبدّل ثيابه وتغسله، ثم تتركه. لن تعطيه الثدي بعد. ما هذه العادات السيئة التي صار يطالبها بها وكأنها حق. نام من دون عشاء. غدًا تنزل إليه في الصباح الباكر أو، إذا ظلّ نجيب نائمًا، سرقت نفسها ونزلت كي تطمئن إليه.

أنهت سلام المسح ووقفت في الزاوية. فتحت باب المدخل وراحت تحرّكه رواحًا ومجيئًا علّه يأتي بدفعة هواء إضافية تسرّع عملية جفاف الأرض. فكّرت أن توقظ نجيب، لكنها عدلت حين تذكّرت ما كان مرتسمًا على ملامحه من إجهاد وتعب. ستتركه ينام قليلاً بعد. إن استقيظ وحده في انتظار أن تنهي تنظيف الحمّام والمطبخ، يكون كسب نصف ساعة إضافية. وإلاّ ذهبت إليه بنفسها وأيقظته.

مرّت قرب الغرفة التي حوّلها نجيب مختبرًا. فكّرت أن تدخلها كي ترى ما آلت إليه، لكنها عدلت عن فكرتها تلك حين تذكّرت ما تصاب به من ذعر لمرأى ما فيها من جرذان، حتى لو كانت في أقفاصها قيد الأسر. إلى متى سيستمرّ في جنونه هذا، تساءلت، ثم عزّت نفسها مردّدةً أن جنونه هذا بالضبط هو ما يبقيه معها.

متى سيحسّ نجيب بها فيفاتحها بحبه ويطلبها للزواج؟ صحيح أنه يساكنها منذ أسابيع. صحيح أنه لم يهملها أبدًا. صحيح أنه ينام في سريرها، معها، وأنه يعتني برغبتها أفضل ممّا قد يفعل زوج، ومع هذا، تحتاج سلام إلى اللقب والصفة والاسم.

ـ السيدة سلام؟ إنها زوجة الأستاذ نجيب!

بودّها أن تسمع الناس يتلفظون بهذه الجملة لمرة واحدة في حياتها، ولتمت بعد ذلك، لا يهمّ... ستتحدّث إلى لقمان في الموضوع. مضى زمن وهي لم تره. الله وحده يعلم أين أصبحت حسابات الشركة وما آلت إليه. غدًا تتصل به، وربما دعته إلى العشاء. ستوصيه قبلاً بأن يفتح نجيب بأمر الزواج، يسأله على حدة وكأنها على غير علم، كي ترى أتراوده فكرة الاقتران بها أم هي على الأقل قد راودته.

أقفلت سلام الحنفية ثم نفضت يديها. لن توضّب ما جلته الآن لأنها متعبة. ستتركه يتصفّى على مهل، فلا تضطر إلى تجفيفه بالفوطة. شعرت بالجوع يقرص معدتها. نظرت إلى الساعة فوجدتها تمام العاشرة. ماذا تفعل؟ هل توقظ نجيب وقد مضى على نومه العميق أكثر من ساعتين؟

اتجّهت إلى الغرفة وفتحت الباب على مهل. على رؤوس أصابعها، اقتربت منه. لم يزل نائمًا. بسبب العتمة، لم تتمكّن من تبيّن ملامحه، لكنها سمعت صوت غطيطه العميق. خلعت ملابسها ثم تناولت قميصها. لن توقظه. ستتعشّى وحيدةً وتذهب هي أيضًا

إلى النوم. لن يضيرها أن ترقد باكرًا لمرة، حتى لو غصّت برغبتها فيه.

ابتلعت سلام آخر لقمة في صحنها وقامت تعيد إلى الثلاجة ما لم تأكله. سمعت وقع أقدام لوريس فوق رأسها، فأصغت وهي تحاول تبيّن ما تفعله العجوز المختلّة في مثل هذا الوقت المتأخّر من الليل. تهملها منذ فترة، مذ جاء نجيب يسكن معها. ما عادت سلام تملك الوقت كي تطهو لها وتهتم بها كما كانت تفعل من قبل. صارت تحمل إليها أكياس المؤونة وتتركها تتدبّر أمورها بنفسها، وكثيرًا ما تنسى أو تتناسى أن تطلّ عليها كي لا تطالبها بما لا تقدر عليه. كم يدًا لها هي كي تعتني بالجميع؟ ألا يكفيها العمل في السنترال والبيت، والاهتمام بنجيب وسليم؟

سليم... لن يهنأ لها بال ولن تغفو طالما أنه نام من دون عشاء. طول النهار، لم يأكل شيئًا، فكيف تتركه هكذا موثقًا وجائعًا كحيوان؟ ستنزل إليه وتحاول إيقاظه، ثم تقذف في فمه شيئًا كي تستريح.

■■■ ■■■

وقفت سلام وجعلت تضع أصابعها في عينيها علّهما تجودان بقليل من الدمع. فركتهما ثانيةً ثم انتظرت. لا شيء.

هي الدمعة الأولى التي تعاندها وتجدّ هي في طلبها. دمعة واحدة لا أكثر، ويجري من بعدها الماء غزيرًا حتى يبلّل قميصها والأرض. غير أن ما جرى فيها هو العرق وصوت رتيب راح يردّد في رأسها جملةً وحيدة فقدت بعد حين معناها وصارت تدور على فراغ.

كان سليم لم يزل في الوضعيّة التي تركته عليها حين غادرته، ممدّدا فوق البطانية. ما اختلف هو خيط من الرغوة التي سالت من زاوية فمه، على الخد، فالذقن، فالعنق، كي تتكوّم بقعة بيضاء على الأرض.

حرّكته قليلا فما تحرّك. هزّته فازداد جمودًا. حتى فهمت وابتعدت عنه تستجدي الدمع.

لقد مات. كما يموت من يُقتل ولو عن غير سابق تصميم أو عمد، بإبرة مورفين، أو ذبحًا، أو برصاصة قنص. هذا ما كان يتردّد في رأس سلام التي جعلت تحدّق إليه كأنما هي تتأمّل في وجه غريب.

نظرت إلى يديه الموثقتين واستغربت طول أظافره. اقتربت لتفكّ وثاقهما، ثم افترشت الأرض. تناولت الشمعة المشتعلة ووضعتها بجانبه. رفعت يده إلى فمها وراحت بأسنانها تقضم. تقضم وتبصق بعيدًا إلى أن قضمت أظافر أصابعه العشر. وحين اطمأنّت

إلى مظهر يديه النظيفتين، طوت ذراعيه فوق الصدر. بكفّها، مسحت الرغوة عن زاوية فمه، ثم أجلست رأسه بحيث يستوي مع اتجاه الجسم. رتّبت شعره كي تنتظم الخصل التي طالت فنزلت على الوجه، وعادت تحدّق إليه.

أما كان يجدر بملامحها أن تكون بمثل حسن ملامح سليم وتناسقها؟ أما كان يجدر به أن يجيء مكانها، فتكون هي الصبي وهو البنت؟ هذا ما كان يردّده أمامهما صغيرين، الأهل والأقارب والجيران. وكم كانوا على حق! لو كان سليم هو البنت، لأحبّه الأبرص ولكانا متجاورين في السن. ولو كانت سلام هي الصبي، لما خافت الحرب أو عرفت الجبن. لكانت أصبحت زعيم الحيّ، لما جنّ سليم، ولما نُعتت هي بالعنوسة والقبح. لو...

وضعت سلام كفّها على ثديها، ثم قرصت بعنف. فما شعرت بالألم. بل هي لم تشعر بشيء. بلى. بالضجر. ضجر عظيم ورغبة هائلة في النوم. نعاسٌ جعل يصعد فيها كالماء حتى غمرها مغرقًا في داخلها كل الأحاسيس. ماذا لو تمدّدت هنا، بجانبه، وضعت ذراعها تحت رأسها ونامت؟ إن فعلت، فستغفو توًا، بعد ثانية أو أقل. تنام براحة وبعمق كأنما هي تخففت من حمل ثقيل يرزح على كاهليها منذ سنوات. تنام ولا تحتاج إلى الحبوب المنوّمة التي تلجأ إليها كمنارة يستهدي بها الرقادُ إلى عينيها. تنام. فقط. كما يفعل الناس. كما يجدر بالنوم أن يكون. كما تغفو بهيمة في حظيرة آمنة. كأن كل ما جرى لم يجرِ. كأن الخليقة ستبدأ منذ نهار غد...

غفت سلام.

لدقائق أو لساعات، لا تعرف. لكنها حين استيقظت، شعرت بالنشاط يدبّ في أوصالها كأنها تقبل على يوم جديد. وقفت ونفضت ما علق على قميص النوم من غبار. ولو لم تتفكّر في ما ينتظرها من عمل، لكانت نسيت ما جاءت تفعل هنا أو سبب وجودها اللحظة في القبو.

صعدت الدرجات الخمس، ثم ولجت الدار متجهةً مباشرةً إلى الغرفة التي صارت تسمّيها مخبر نجيب. فتحت الباب كأنها لا تُقبل على ما كانت، في الأمس، تُذعر لمجرد التفكير فيه. انحنت تمسك بالحلقة المعدنية، ثم بحركة واثقة، رفعت القفص دون أن تولي أدنى اهتمام لما راح يتحرّك في داخله ويصيء.

نزلت الدرجات الخمس. وضعت القفص على العتبة. فتحت الباب ثم اتجهت إلى الشمعة المنارة وأطفأتها. استدارت كي تعاود الخروج، فارتطمت قدمها بشيء حار ورخو داست عليه كأنما وطئت إسفنجًا له ملمس اللحم. كادت أن تهوي لولا أنها تمسّكت بما طالته يدها، فأوقعت في قيامها صناديق ما لبثت أن تبعتها أغراض جعلت تتدحرج منوِّعةً الإيقاع والصوت.

لم تبال. أخذت القفص وأدارته في اتجاه القبو. رفعت العارضة الصغيرة التي تقفله ولبطت بقدمها، فانطلقت الجرذان سريعةً تتراكض داخل مساحة القبو.

أعادت سلام القفل إلى موضعه في الباب وضغطته، فطقّ طقّةً فهمت منها أنه قد انغلق. أصاخت السمع، فتناهت إليها أصوات

شبيهة بضجيج أداة حادة تمرّ فوق سطح زجاجي، آلة تخرط اللحم، منشار يلهب جسم الخشب قبل أن يفرمه.

اطمأنّت إلى ما يجري، فقرّرت أن تصعد كي تخلد إلى النوم. حملت القفص الفارغ وصعدت الدرجات الخمس. وقبل أن تلج الدار، التفتت إلى السماء فوجدتها على حالها لم تزل مكتظة بالغيم. غدًا تنسى. غدًا، لا يبقى أثر للسرّ الذي كان مختبئًا في القبو. فالحين، تجتمع الجرذان من حوله، تنقضّ عليه وتبقى تنهش وتقضم وتمزّق وتأكل حتى تخفيه تمامًا، كأنه ما كان هنا، أو كأنه أبدًا لم يكن.

فتحت سلام باب الدار، دخلت ثم أغلقته.

صعدت إلى السرير واستلقت بقرب نجيب. فتحت عينيها ثم انقلبت على جانبها الأيمن تبحث عن وضعية النوم. ثم حين وجدتها، أغمضتهما واستقرّت على ابتسامة.

ها هو سليم قد عاد إلى حضن والديه كي يردّ لها الجميل.

فهو أوّلاً مات كي يشكرها.
وثانيًا مات كي يحرّرها.
وثالثًا مات كي يبرّئها.

مات وجعل الجرذان تأكل جثته كي يغادر مطمئنًا إلى أن أحدًا لن يضايق أخته، يلاحقها، أو يتهمها بارتكاب جرم.

— ١٨ —

اتّصلت شيرين تسأله عمّا إذا كان باستطاعته المرور بها في أسرع وقت. بالطبع أجاب، ثم نزل مباشرةً وجاء إليها.

وجدها في قميص النوم. متعبة العينين ومتعبة. ليس من عادتها أن تكون في البيت، عند هذا الوقت من النهار. هل أنت مريضة، سألها، فما ردّت، بل ركضت إلى الهاتف الذي راح يرنّ.

دخل لقمان إلى الصالون يجلس فيه. وحين وجدها مستغرقةً في مكالمة بدت ستطول، تناول جريدةً وقعت تحت يديه وراح يقلّب في صفحاتها.

أليست هذه مارينا البيضاء الناصعة كالثلج؟! ماذا تفعل في الصورة ولمْ يتحلّق حولها هذا العدد من رجال الأمن؟ «بغيّ روسية تمّ القبض عليها وفي حوزتها خمسة كيلوغرامات من الهيروويين»... شيوعيا، معقول؟!

راحت عينا لقمان تنتقلان بسرعة بين الصورة والأسطر الصغيرة السوداء، فلم تتمكّنا من الجمع بين من يحكي عنها المقال وتلك التي تقف في الصورة مذعورةً كطفلة أضاعت والديها في المطار... «وُجدت البضاعة محشوّة في تعليقات الثياب المصنوعة من

الخشب وعـددها عشرون... وكانت المدعـوة مارينا أستروبوفـيتش متـجهة إلى باريس للقـاء خطيبهـا الذي سبقـها إلى هناك، وهو من كبار تجّار المخدّرات ويُدعى... ».

أنهت شيرين مـكالمتها وجاءت تجلس بالقرب منـه، فطوى لقمان الجريدة ووضعها جانبًا كي يأخذها بين ذراعيه، ويضـع رأسـها على كتفـه فلا تلحظ ما ارتسم على ملامـحه من تعبيـر، بعد أن رأى ما رأى في الصـحيفـة من صـور وتعليقات. ملّس على شعـرها فيما هو يستـرجع ذكرى لقائه الأخـير بمارينا والسعـادة التي كانت ترشح منها حين أخبرته أنها مغادرة إلى باريس.

بعد لحظات، أصلحت شيرين من قعدتها، ثم التفتت إليه تقول :

ــ لقمان، لقد استقلتُ من عملي!

ــ أهذا ما يتـعسك إلى هذا الحـدّ؟ لقد أخفـتِني، ظننتُ أن هناك مصيبةً ما.

سكتت شيرين عابسةً، ثم تابعت : هناك أمر آخر يجب أن أحدّثك به... لقد قررتُ العودة إلى باريس.

صرخ لقمان : باريس؟ متى؟

قالت شيرين : ما إن أنهي بعض الأمور العالقة. في أسرع وقت.

اضطرب لقمان وجعل يحدّق إلى الأرض. هذه مصيبة بالفعل! ماذا يفعلِ الآن وما يقول لها؟ ها هي قد حسمت أمرها، أخذت قرارها ولم تكترث لوجوده.

وقف ثم وضع يديه في جيب بنطاله ومشى في اتجاه الشرفة. والآن يا «زميل»، ماذا تقترح وبمَ تشور؟ أرأيتَ؟ بقيت تفاخر وتزايد وتدّعي أنك ممسك بزمام الأمور، أنها متعلّقة بك ولن تقدر على فراقك أبدًا، وها هي تودّعك فلا تحسب لك حسابًا ولا يضيرها أبدًا أن تفترق عنك. بالفعل أهنّئك!

تبعته شيرين إلى الشرفة. وقفت قربه ورفعت يدها تملّس على ظهره بحنان. التفت إليها مقطب الجبين، ثم أخذ كرسيًا وجلس. ففعلت مثله وجلست قبالته.

قال لقمان وهو يحدّق إلى البحر : ليس أجمل من المتوسّط... من الآن فصاعدًا، سأنظر إليه بطريقة مختلفة وسأحبه أكثر، لأني أعرف أنك ستكونين على الضفّة المقابلة منه.

ابتلعت شيرين لعابًا لم يجتمع في حلقها، ورفعت يدها إلى عنقها تعالج غصّة عالقةً فيه. رنّ الهاتف، فابتسم لقمان ينظر إليها ويهزّ برأسه، فما تحرّكت من مكانها إلى أن انقطع الرنين.

قالت : أتعرف؟ إنما جئت إلى هنا وقبلت هذه المهمّة، كي أنسى قصة غرام مستحيلة. فإذا بي أقع في ما هو أكثر تعقيدًا منها بكثير.

قال لقمان : ولم تنسي بعد، لذلك قررت العودة؟

قالت شيرين : لا، ليس السبب ما تعتقد. الحقيقة، لا أعرف كيف أشـرح لك، فالأمـور لم تزل مخـتلطةً عليّ. لا أريد أن أتعلّق بهـذي الأرض. كل ما هنا مؤلم ويوجعني، هل تفهم؟

قال لقمان : أجل. لو كنتُ مكانك، لأخذت القرار نفسه.

قالت شيرين : ألا يحزنك أن أغادر؟

قال لقـمان : يحزنني أنه قـد خطر لي أن ما بيننا مـختلف وأني تعلّقت بوهم.

قالت شـيرين : لقمان، أرجـوك لا تعتقد أنك كنتَ مـجرّد سلوى في حيـاتي. لكن، لا أدري ما الذي جرى لي. كأني فطنت فـجأةً إلى أنني أصبـحتُ في الثلاثين، أن الحيـاة تهرب مني أو تدور في مكان آخر ممـتنع عليّ. أتفهم؟ لا أريد أن أنتــهي عجـوزًا وحيـدةً في بيت موحش وفارغ.

صمت لقمان وتسارع نبض قلبه. أهي خشبة خلاص ترميها إليه كي يلتقطهـا قبل أن يباشر فـي الغرق ؛ أم هي على العكس من ذلك قرار نهائي بالإعدام تصدره في حقّه وتعلمه بأن لا رجوع لها عنه؟

قال لقمـان : أرجو أن تجدي رجلاً يُسـعدك فأنتِ تستـحقّين كل الخير.

قالت شيرين : لَمْ تسألني أن أبقى؛ أفلا تحبّني؟

قال لقمان : بل لأني أحبك أكثر مما تتصوّرين، لا أسألك أن تبقي.

ثم وقف عابسًا وهو ينذر أنه لم يعد يحتمل متابعة النقاش في هذا الموضوع وأن بنيّته الانصراف. تبعته شيرين إلى الصالون، ثم أمسكت بيده ترجوه أن يبقى قليلاً بعد، فامتثل وجلس في الكنبة وجلست هي بجانبه. لقد خسرنا! هذا ما كان يردده في سرّه، وأية خسارة فادحة هي يا «زميل»! تبًا للنساء، غادرات ومعقّدات ولا خير فيهن. ها هي مارينا قد أغرمت بتاجر مخدّرات أغراها بالزواج كي يستغلها، فانتهت إلى السجن ؛ سلام ما عادت ترى سوى نجيب وحفلاته في التعذيب الجنسي ؛ أما الميس شيرين، فهي تنوي السفر إلى باريس وحيدة لأنها اكتشفت فجأةً أنها أصبحت في الثلاثين!

خيال صحراء، هذا ما أنتَ عليه! فزّاعة، طيف، كلب، لا شيء. يكفينا مذلّة وهوان. قم بنا ولنعد إلى عالمنا نختبئ فيه ولا نغادره حتى القيامة. انسَ باريس وحلمك بالفرار من هذا الواقع السخيف. تبًا لهذه البلاد؛ مدمّرة وقاتلة وتلتفّ عليك كخيوط العنكبوت فتحاصرك وتعصرك ولا تموت دفعة واحدة، بل تنزف على مهل، لسنوات، لدهر. تبًا لها لا تنحاز إلا إلى القوي وتهلك الضعيف، ظالمة وحارقة ولا حدود لبأسها، تقتل وتبيد وتعذّب ثم تسير في جنازة الميت تطالب بالانتقام وضرورة الأخذ بالثأر. ليت النار تحرقها، ليت الطوفان يأتي عليها فيغرقها ويمحوها من على وجه الأرض ولا يبقى فيها من يروي عمّا كان. كل الحق على الحرب. لو لم تنته، لما

كنا الآن خاسرِيْن مصيرنا الاستجداء واستعطاء الرحمة من النساء. يشعلونها ثم يطفئونها كما لو كانت لعبة، كما لو كنا بهائم، حجارة، حشرات. وأنا؟ ونحن؟ كيف نحيا الآن في هذا العصر الكلب، عصر السلام والانحطاط والقرف والغش والنهب والخديعة والكذب والاحتيال والمظاهر والـ...

سألته شيرين : فيمَ تفكّر؟

فتنهّد لقمان عميقًا، ثم أجاب : لا شيء. أفكّر في هذه الحياة.

قالت شيرين : لا أفهم كيف تقدر على كل هذا، ألا تفكّر في السفر أبدًا؟

قال لقمان متوتّرًا : وإن خطر لي ذلك، أفتظنّين... ثم، ما لك أنت وهذه المشاكل، انسي الموضوع ولنتحدّث في أمر آخر.

أدارت شيرين رأسها تنظر في البحر متفكّرة وهي تقضم أظافرها. بعد لحظات من الصمت، قالت بصوت يرتجف : أتدري أنه لا بحر في باريس؟

التفت إليها لقمان حائرًا فتابعت : والناس هناك باردون، والوحدة قاتلة والطقس معتم، وأنا أعمل طول النهار ولا أعود إلا في المساء. أتعتقد أن في إمكانك تحمّل هذا كلّه؟

فأجابها لقمان متفاجئًا ومتعجّلاً : أتعلّم الفرنسية وأبحث عن

عمل وأهتم بك وأدفئك وأنتظرك لا النهار فقط، بل عمرًا بحاله يا شيرين. كيف يعنّ لك أن تسأليني إن كنت أتحمّل العيش مع الشخص الوحيد الذي يعطي حياتي معنًى والذي من دونه أفضّل الموت؟

قالت شيرين : ونتزوج وتنجب لي أطفالاً؟

لفظتها! قالتها! نطقت! ن ـــ ت ـــ ز ـــ و ـــ ج ! يا إلهي! يا للسعادة! يا للروعة! يا للحظ! ما بك جمدت هكذا كالجحش يا «زميل»؟ قم بنا نأخذ الميس شيرين في الأحضان، نضمّها، نقبّلها ونعصرها بين ذراعيّ.

— ١٩ —

وقف لقمان في الـدار يتفكّر في ما عساه يفـعل بعد أن أنهى كل مـا يتـرتّب عليـه، والوقت لم يزل باكـرًا كي يخـلد إلى النوم، وهو متوتّر ينتظر مرور الساعات عليه.

ذهب إلى الغرفة وعاد منها بحقيـبتين وضـعهما في المدخل قرب الباب. هكذا يكون قد أكمل استعداداته لنهار الغد، فلا يبقى له إلا أن يستحمّ، يرتدي ملابسه الجديدة، يتـناول القهوة، ثم يدعو التاكسي لاصطحابه إلى المطار.

من كان ليصـدّق أن الفرج سيأتي بعد طـول شقاء وانتظار وأنه سيكون على هذا الكمّ من المفاجآت السـعيدة التي فاقت كل ما خطر له في الخـيال. ها هـو قد عـقد قـرانه على شـيـرين في السفـارة الفرنسية، فسبقته هي إلى باريس وبقي هو كي ينهي بعض الأوراق والمعاملات.

غدًا نلتحق بها يا «زميل» ونـودّع بلد القرف هذا وعيشة الكلاب. ها نحن قد خـسرنا معركـة الحروب الأهلية وربحنا مـا هو أصعب منها بكثير : الجولة الحاسمة في حربنا مع السلام. لو كانت الحرب اسـتمـرّت على أزرها، أكنتَ تعرّفـت أو حلمتَ بالتعـرّف إلى الميس

شيرين؟ كنتَ غنمت سطوةً ومالاً ونساءً، لكنك في المقابل، كنتَ ستخسر الاسم والمكانة الاجتماعية والمستقبل الباريسي. ثم هل كنتَ لتنعم مع غيرها بكل ما سيسبغه عليك اقترانك بها من احترام ورفعة مستوًى واعتبار؟

من الآن فصاعدًا يا «زميل»، سأدعى «المسيو» لقمان. وستتعرّف أنت وأنا إلى «مسيوهات» و«مدامات» بعدد شعر الرأس ونجوم السماء. بل ربما بدّلتُ اسمك الفلاحي الرخيص بعد اكتسابك الجنسية الأخرى، فاخترتُ أن أسمّيكَ مثلاً المسيو آلان أو المسيو باتريك أو المسيو فرانسوا.

يا الله! متى يجيء نهار الغد، فترفعنا الطائرة إلى السماء السابعة فلا نعود نلتفت إلى الوراء، نخلع جلدنا البالي العتيق لنولد مرة ثانية شخصًا لا تاريخ له، وإنما له مستقبل فقط كأي مولود جديد.

أدخل لقمان يده في جيب قميصه يتناول جواز سفره الجديد. فتحه وراح يتأمّل في ختم الڤيزا الذي حصل عليه صباح اليوم. رفعه إلى أنفه واشتمّ. لم يزل الحبر طازجًا. والتاريخ واضح لا يقبل الشك.

حين عودته إلى البيت، التقى بالناطور فصبّحه على غير عادته، وما تضايق من لكنته الغريبة أو زعيق ذرّيّته الفالتة في طوابق البناية كالجرذان. ما همّه بعد الآن أن يكون الناطور أشبه بحارس

أو شـرطي أو جاسـوس. ما همّـه أن يكون غريـب اللكنة، متـعاليًـا ومدعـومًا بدولة أو بـجيوش. مـا همّ أن تكون الأزمـة الاقتصـادية خانقة، أن يزداد الفقراء فـقرًا، أن يزدحم السير، أو يقع زلزال يمحو الأخضر واليابس ويأتي على كل شـيء. ما همّ، ما دام لقمان مغادرًا ببطاقـة ذهاب دون إياب وبهـدف المضي قـدمًا دون الالتـفـات إلى الوراء.

أجل، لقمـان لم يعد من هذي البـلاد منذ تزوّج شيـرين وأصبح مشـروع مواطن فـرنسي تتـرتّب عليه حـقوق وواجـبات. ولقـمان الجديد مـا عاد يجد للكراهية والحـقد مكانًا في قلبه، بعد أن احـتلته الميس شيرين وما تعد به من ثمار ثروة مقبلة يكفي أن يحرّك ذراعه قليلاً حـتى تسقط بين يديه. ولقـمان المسافـر صباح الغـد شـخص جميل المظهر ونظيف القلب، وفي إمكانه حتى أن يدمع لو شاء لمرأى وردة جميلة أو عصفور أو طفل صغير.

ينبـغي لك أنتَ أيضًا يا «زمـيل»، أن تندم على أخطائك وتتـوب، فتنسى أيام الأبرص ونجيب وسلام. المساكين، سيبقون هنا يحيون في سلة المهملات العملاقة هذه. ولن تنقذهم الجرذان ولا الصلوات. كيف سـيفـسّرون اخـتفاءك ومـا عسـاهم يقولون بعـد أن يلحظوا رحـيلك، بل إلامَ يعـزون الآن يا ترى انقطاعك عنهم وغـيـابك الذي طال؟

شـعر لقـمـان بالشـوق إلى حيّ سلام. مـاذا لو ذهب لزيارتهـا فصرف الوقت في رفقتـها بانتظار حلول الليل. هكذا يكون قد رآها هي ونجيب، اطمأن إليهما وأراح ضميـره بأنّه أدى واجباته حيالهما

كصديق. لن يطلعهما على مشروع سفره، بالطبع، لكن ربما وافاهما لاحقًا ببطاقة بريدية تنبئهما بما آلت إليه أحواله وكيف أصبح فوق الريح.

تناول لقمان سترته من على المشجب، وضعها عليه ثم أخذ المصعد. عند خروجه من مدخل البناية، تبعه الناطور بصوته يقول: مع السلامة سيّد لقمان! أرجو ألا توفّرنا واعلم أننا في الخدمة إن احتجت أي شيء. فشكره لقمان ثم خرج مبتسمًا، بعد أن ألقى عليه تحية المساء.

ــ ٢٠ ــ

كان النور مضاءً في الداخل، لذلك ألحّ لقمان في قرعه على الباب. فكّر في أن يغادر، ثم خطر له أن يصعد إلى لوريس كي يتفقّد سلام، لكنه عدل عن ذلك حين تذكّر أنها قلّما تركت البيت ولو للحظة، دون أن تطفئ الأنوار. ماذا لو دار حول البيت وحاول الدخول من على شرفة المطبخ.

قفز من فوق الحائط الواطئ حين وجد باب المطبخ مفتوحًا، ثم وقف مصعوقًا بكمّ الأطباق المتسخة المتراكمة على المجلى، النفايات المذرّاة في الأرض وبقايا الأطعمة حيث تسرح الصراصير والجرذان. نادى على سلام، ثم على نجيب، فلم يسمع ردًا، إلى أن دخل ردهة الاستقبال فوجدها.

كانت سلام بشعرها المنفوش وكأنها واحدة أخرى، وقد خسرت الكثير من وزنها. شحب لونها، غارت عيناها وبدت وكأنها نصف المرأة التي كانتها في قميص النوم المتسّخ المبقّع بالزفر. نظر إلى الفوضى المتراكمة من حولها، ثم حاول عن بُعد تبيّن ذاك الشيء الذي تلهو يداها به ويجعلها غائبة لم تلحظ قرعه المتكرّر على الباب، أو حضوره اللحظة أمامها.

حيّاها فما أجابت. خاطبها فما رفعت عينيها بل استمرّت منهمكة

في ما تفعله وتواظب عليه باهتمام مبالغ فيه. اقترب، فوجدها تعالج في قماش القميص حبيبات قطنية صغيرة. هزّها ففطنت لوجوده، ثم أخذت تنظر إليه باستغراب كأنما هي تنتظر منه مبادرتها بالسؤال الذي جعله يجرؤ على إلهائها عمّا تقوم به.

ــ أين نجيب؟

ــ ماذا؟

ــ سلام! سألتُك أين نجيب.

ــ نجيب؟ إنه نائم.

تركها لقمان واتجّه إلى غرفة النوم. فتح الباب ثم أنار الضوء، فما أضاء. خطا خطوة نحو الداخل، فطالعت خياشيمه رائحة كريهة ما لبثت أن تشبّثت بحلقه، دخلت إلى معدته ففركتها بعنف، ثم أخذت تشدّها كأنما لكي تخرجها من فمه.

رفع طرف القميص إلى أنفه يسدّه، ثم تناول القدّاحة من جيبه وأشعلها، فرأى نجيب الممدّد في السرير. كانت جثّته قد باشرت في تحلّلها وكانت ملامحه، أطرافه وكرشه المنتفخ، سابحة في محلول أصفر مختلط بالبراز. والدود يرعى في عينيه.

ركض لقمان إلى النافذة يفتحها، ثم انحنى إلى الخارج يستجدي

هواءً نقيًا ويتقيأ كل ما في أحشائه. ظلّ يتقيأ حتى ظنّ أنه سيختنق اللحظة وأن عينيه ستخرجان من محجريهما، حتى خرج من الغرفة مهرولاً فاتّجه إلى الحمّام يعالج بالصابون والماء غثيان معدته ورئتيه.

عاد إلى سلام ليجدها لم تزل على حالها، منحنيةً فوق حجرها ومنكبّة على نزع خيطان وهمية في قميصها القطني. جلس لقمان على مقربة منها، ثم راح يتأمّل وجهها فيما هو يفكّر في كيفية الدخول إليها بغية استدراجها إلى الكلام. بعد لحظات من الصمت، قال :

ـ وجدتُ نجيب نائمًا في سريره.

ـ أجل، من الأفضل أن نتركه نائمًا لأنه متعب.

ـ وماذا يشكو يا سلام؟

ـ إنه مريض! هذا ما قاله لي الطبيب : زوجك مريض جداً يا سيدة سلام. سمعتَ يا لقمان، ظنّه زوجي! لكنه ما إن يرتاح جيّدًا، أجبتُه، حتى يشفى ويطيب.

ـ وكيف علم الطبيب أنه مريض يا سلام؟

ـ ما هذا السؤال يا لقمان؟ أنا من أرسلتُ في طلبه طبعًا!

ـــ أقصد لماذا أرسلتِ في طلبه ولم يكن نجيب يشكو سوى تعب بسيط.

ـــ تعب بسيط؟ كان منهكًا! يقضي نهاراته كلها في المختبر، فلا أراه تقريبًا. وفي الفترة الأخيرة، صار يمضي فيه جزءًا كبيرًا من الليل أيضًا. ظللتُ أردّد له أنه سيمرض إن استمرّ على هذه الحال، لكنه كان يجيبني بأنه يختبر طريقةً جديدةً بعد أن فشلت تجاربه الكيميائية وأنه باشر أخرى تعتمد على الإبادة بالجراثيم... لو رأيتَه يا لقمان، لكنتَ نقلته فورًا إلى المستشفى وعلّقتَ له المصل. المهم، في تلك الليلة تركتُ سليم بعد أن قرّر الانتقال للعيش مع والديه...

ـــ نجيب قرّر العيش مع والديه؟

ـــ لا، سليم!

ـــ سليم؟ وما جاء يفعل هنا؟

ـــ انتظر! تركتُ سليم في القبو مع والديه، ثم صعدتُ إلى البيت فصلّيتُ وغفوت.

ـــ تركته في القبر؟

ـــ عن أي قبر تتحدّث؟ أتعبتَني يا لقمان، قلتُ لك القبو! كفّ عن مقاطعتي وإلا توقّفت عن الكلام.

ـ حسنًا، لن أقاطعك بعد الآن يا سلام، تابعي.

ـ ودّعتُ سليم وغفوت. لكن نجيب راح يتحرّك في نومه، حتى أيقظني صراخه إذ جعل يهذي. قمتُ أتلمّس جبينه، فوجدته مشتعلاً بالنار. أعطيتُه ما في حوزتي من أدوية، وجعلتُ أضع له كمادات باردة على جبينه، علّ الحرارة تسقط عنه. لكنها استمرّت تصعد حتى وصلت إلى الأربعين...

سهت سلام للحظات، فسكت لقمان منتظرًا أن تتابع الكلام. إلا أنها قامت كي تبتعد، فاستوقفها يسألها إلى أين تذهب. لإعداد القهوة، ردّت، فشكرها مصراً على أنه لا يرغب في شيء وأنه تناول عشاءه ثم شرب ركوة قهوة كاملة قبل الحضور إليها بقليل.

ابتسمت سلام وعادت تجلس، ثم قالت :

ـ ها أنت قد جئت إليّ يا لقمان وكنتُ أنوي الاتصال بك.

ـ لماذا؟

ـ بودّي أن تحدّث نجيب عنّي. أعني أن تسأله إن كان ينوي الزواج بي، أو إذا ما كان ذلك قد خطر له على الأقلّ.

ـ أجل يا سلام، أعدك أني سأفاتحه بالأمر ما إن يُشفى. لكنه الآن مريض وينبغي لنا أن نعالجه بأسرع وقت. هه، لم تقولي لي

هل سقطت عنه الحرارة في ما بعد؟

ـ أجل. فبعـد أن بدا واهنًا متعبًا لا يقوى على الحـراك، دبّ فيه النشـاط فجأة، فعاد عصبيًا قلقًا متوتّرًا يغضب لأتفه شيء.

ـ شُفي إذن؟

ـ لا. قـال الطبـيب إنهـا أعـراض المرض وإنه ينبـغي إدخـاله المستشفى بسرعة...

ـ وما هو هذا المرض يا سلام؟

ـ فـرجوتُ الطبـيب أن يبقـيـه معي وأعطيـتُه مـالاً وأنا أحلف وأقسم بأنه إذا استمرّ على هذه الحـال، فسأتولّى نقله بنفسـي. كنتُ مـوقنةً من أن حـالته خـفـيفـة لا تسـتدعـي إبلاغ وزارة الصحـة والسلطات...

ـ إبلاغها بماذا؟

ـ إلى أن بدأت عيناه تحتقنان بالدم وتبع ذلك تورّم في اللسـان رافقه تقيّؤ متكرّر لعدة مـرات في اليوم. كان الطبيب قد قال لي بعد أن رشوتُه : أتركك الآن وأعـود بعد خمـسة أيام، وهي الفـترة التي حدّدها كمهلة لتراجع المرض وبدء التماثل إلى الشفاء.

ـــ وهل عاد الطبيب؟

ـــ أجل، عاد.

ـــ و ماذا فعل؟

ـــ لا شيء. أوهمتُه أني غادرت ونجيب للنقاهة، وتركتُ له كلمة في الباب أشكره فيها على كل ما فعل وأزفّه خبر تماثل «زوجي» للشفاء.

ـــ وكم مضى على زيارة الطبيب تلك يا سلام؟

ـــ أسبوعان تقريبًا.

ـــ ولِم أوهمتِه بأن نجيب قد شفي وكان بعد مريضًا؟

ـــ لأنه ادعّى أنه مصاب! ولأنه كان ينوي التبليغ عنه والحجر عليه خلال أربعين يومًا!

ـــ مصاب بماذا يا سلام، بماذا؟

ـــ بماذا يا سلام، بماذا؟ بالطاعون يا لقمان، بالطاعون!

قالت سلام ذلك وهي تسخر منه وتقلّد لهجته، ثم انفجرت

بالضحك. فما كان من لقمان إلا أن وثب مجفلاً وهو يشعر بوبر بدنه يقف من رأسه حتى قدميه. ابتعد متّجهًا إلى الباب كي يغادر سريعًا هذا المكان السقيم الموبوء، فتبعته تتعلّق به وتتوسّل إليه أن يبقى إلى أن يستيقظ نجيب فيحدّثه عنها ويقنعه بضرورة الزواج.

حاول لقمان التملّص منها بأن وعدها بالعودة صباح الغد من كل بدّ. لكنها عاندت، فأمسك بذراعيها المتشبثتين به يبعدها عنه. وحين استشرست، دفعها بقوة حتى هوت، وانطلق هو كالسهم إلى الخارج لا يلوي على شيء.

— ٢١ —

لا يدري ما الذي أوعز إليه، بل حتى كيف خطر له.

كان قد أصبح في منتصف الطريق التي تعود به إلى البيت، لكنه وقف هنيهةً ثم قرّر التراجع، هو الذي لم يصدّق أنه أفلت من براثن سلام. ربما هي ذكرى الأبرص أو رغبته في وداعه والتخلّص من ذكراه... الحقيقة، هي أموال لوريس التي أعادته، دولاراتها التي ستذهب هدرًا بعد أن توفي نجيب وجنّت سلام التي ستلاقي حتمًا المصير نفسه، فتصاب بالطاعون هي الأخرى وتموت.

صعد السلّم على مهل حريصًا على عدم إصدار أي ضجيج ينبّه إلى وجوده، ثم وقف يصيخ السمع. فما تناهى إليه صوت حتى ظنّ لوريس نائمة أو أصبحت في عالم الغيب. هذا هو في الواقع ما تراءى له. استدار كي ينزل، لكنه سمع صوت مفتاح يدور في القفل مرة، ثم مرتين، إلى أن ساد هدوء تام.

لم يفهم لقمان. تريّث للحظات في أعلى السلّم ينظر في الباب منتظرًا أن تفتحه أو تظهر فيه، فما فتحت ولا خرجت ولا تحرّك شيء. اقترب ومدّ يده يمسك بالمقبض. حرّكه بطيئًا كي يتأكّد من أنه لم يزل مقفلاً، وأنه إنما قد تهيّأ له.

لكن البـاب انفتح. أصـدر صوت زيزقـة بطيئـة ثم ركن. وضع لقمـان عينه في الشقّ يستـرق نظرة إلى الداخل، فوجده غـارقًا في العتـمة والسكون حـتى خطر له أن لوريس إنما افتـرضت أن القادم إليها ليس سوى سلام.

خطا لقمان العتبة بتوجّس، لكن دون خشية. وحين ردّ الباب كي يقفله وراءه، شعر بجسم صلب ثقيل يهوي بقوة على مؤخرة رأسه ويُفقده الوعي.

صحا بعـد وقت لم يتمكّن من تقديره، فلم يرها. بل وجـد نفسه مكمّم الفم، موثق الأطراف ببقايا أقمـشة متعدّدة الألوان، ملقًى على الأرض.

شدّ لقمـان وثاق يديه محاولاً التخلّص منه، فوجده مـحكمًا قوياً صعب القطع. جعل يحرّك جسمه كالثعبان، فزحف قليلا حتى وصل إلى الجدار. ثبّـت قدميه في الأرض وراح يدفع حـتى استقام نصفُه الأعلى وتمكّن من الجلوس متّكئ الظهر.

شعر بحفـيف خطى مخنوقة حتى ظهرت له، فمـا أعارته انتباهًا بل اجتازت الدار وكأنها لم تلحظه، وكأنه غير موجود، إلى أن غابت في الغرفـة المقابلة التي يُفـضي بابها إلى حيث كـان. سمعـها تغلق نوافذ، تجرّ جسـمًا معدنيًا ثقيلاً على الأرض، ثم تفتح حنفـية، فقدّر أنها في المطبخ وأنها ربما عطشت وهي تشرب الآن.

نظر لقمـان حواليـه يحاول تبيّن بعض مـا يحيط به، فـما تمكّن

بصرُه من اختراق جدار العتمة الذي كان يثقل على جفنيه. سمع هدير سيارة تقترب ببطء كي تُوقَف قريبًا، ثم طالعته أنوارُها التي انعكست على المكان ببعض التفاصيل.

جالت عيناه بسرعة تسعيان إلى التقاط أقصى ما تستطيعان من معلومات، فعرف أنه في ردهة الاستقبال. رأى آلة خياطة رابضةً في أحد الزوايا ومن حولها لفافات وأوراق وبقايا أقمشة مذرّاة في الأرض. التفت إلى يساره، فلحظ حبلاً مثبت الأطراف بين جدارين متقابلين وقد علّقت عليه كمية من الأغراض. حملق جيدًا، فاتضح له أنها ملابس أطفال إذ لاحت له ظلال أرجل وأكمام معلّقة على مشاجب طافية في الهواء.

ينبغي أن تراه كي تعرف أنه ليس غريبًا جاء إليها خلسةً كي يسرقها أو يعتدي عليها بالضرب. أنا لقمان يا سيدة لوريس، سيقول لها، صديق الأبرص، ابنك الوحيد. لحظات ويخرج من هنا. لحظات وتتذكّر وجوده أو يذكّرها هو به، فتفكّ وثاقه وتتركه يعود إلى البيت ومنه إلى المطار.

يا الله! ما الذي أوعز إليه بالعودة إليها وهل كانت حفنة من الدولارات تستأهل أن يعاني ما يعانيه الآن؟ لا بأس. انتظر قليلاً يا لقمان، وستُحلّ أمورك إن شاء الله. ماذا ستفعل بك عجوز ضعيفة مثل لوريس ولم تخافها؟ هل ستقتلك مثلاً؟ بالطبع لا. في أسوإ الأحوال، قد تَستبقيكَ هنا، فتضطرّك إلى التأخّر عن موعد الطائرة. وليكن، تأخذ طائرة أخرى بعد غد وتنبئ شيرين بتبديل الموعد لسبب ما.

قسمًا بــالله انه لن يمسّها بسوء، حتى إنه سينسى أمــر مالها إن تركته يذهب في حاله. كـيف يفهمها ذلك وهي قد كمّت فـاه فمنعته عن التحدّث إليها وإقناعها بحسن نواياه.

عادت لوريس إليـه. اتجّهت إلى النافـذة، فأغلقتـها، ثم إلى باب الشرفة، فـأقفلته. وهكذا فعلت بأبواب الغرف الأخرى المفـضية إلى الدار، باستثـناء باب المطبخ الذي أبقته مفـتوحًا. اقتربـت من لقمان وانحنت تتـفقّده. ابتـسمت له وملّست على وجـهه بحنان، فـاطمأن معـتقدًا أنهـا ستفرج عنــه. إلا أنها جلست على الأرض قربه مـتكئة بظهـرها إلى الجـدار، ثم مـدّت ذراعـها تـربت على يديه الموثقـتين، تأخذهما نحوها لتبقيهما بين يديها.

أتدري يا إليـاس، هو الربّ من أعـطاني إياك. جـاء إليّ ليـلاً في الحلم وقال لي : كـفّي عن البكاء يا لوريس، لقـد آلمني صدرُك الذي طالما كشـفت عنه ودققتـه بقبضتـيك المقفلتين. سيكون لك ولد عـمّا قـريب. أسابيَع قليلة وتحـملين، وهكذا كـان. حين ولدتَ، بقي أبوك يبكي لأيام. وحين مات، لم أبكه وقلتُ لم يزل للدار من يحـميها ولم يزل لي رجل هو ابني إلياس.

كيف هربتَ منّي، لا أعـرف. كيف كبرتَ عليّ وصرتَ شـخصًا آخر يدعى الأبرص لم يخـرج من صلبي أو من صلب أبيك. يا إلهي، حين رأيتُك في ذلك المســاء، تمنّيتُ لو أن الموت أخذني فـأراحني من تلك اللحظة التي قـضت عليّ وحوّلت حيـاتي إلى سنوات طويلة من العذاب.

عدتُ إلى البيت وأنـا لا ألوي على شيء، وقلبي يكاد يسقط مني في الطريق، ورئتـاي تخـتنقان بذكـرى مـا رأيته مـنك. بكيتُ الليل بطوله وصلّيتُ راكعةً وأنا أطلب من الربّ أن يلهـمني ما ينبغي عليّ فعله لتبـرئتك وشراء خطاياك. فما أجـابني. قلتُ إني لن أقوى على الحيـاة بعد الآن، وقلتُ أموت فلا أعـود أرى ما يعذّب ضمـيري أو يبعدني عنك ويشعـرني بأنك لستَ ولدي، بل غريب مسكون بالشرّ وقد باع روحه لإبليس.

لكن صوتًا خاطـبني، ولم أكن نائمة أو حالمة، بل يقظة مفـتوحة العينين. جعلتُ أصلّي وأطلب لك ولي الغفران، إلا أن الصوت قال لي : ما بك يا لوريس، ولِم تلحّين في طلبي وأنت تبكين؟

أخبرتُه عنك. رويتُ له كيف رحتُ إليك ذات مساء، بعد أن استبدّ القلق بي وطال غيابك عني لأيام. خـفت أن يكون قد أصابك مكروه، أن تكون مريضًـا طريح الفراش، أو أن تكون قـد أصبت برصـاصة قناص، بقذيفة أو بانفجار.

سألتُ عن البناية التـي صادرتَها مع أصحـابك وحوّلتهـا مسكنًا ومكتبًا يوزّع الإعـاشات، فقصـدتُها واستغربتُ كـيف تقيم في هذا المكان الفـارغ الموحش الذي لـم يكتمل بناؤه بعـد وليس فـيـه أثر لسكّان. صـعدتُ السلّم على مـهل. وكلّمـا وصلت إلى طابق، نظرت إلى الشـقتين المتـقـابلتين فوجـدتهـما من دون أبواب، مـهجـورتين وسائـبتين. حـتى تناهى إلى سمـعي صوت ضـحكات تبيّنتُ منـها ضحكتك، فاطمأن قلبي وقلتُ أعـود على أعقابي فلا أزعجك وأتركك تتمتّع بسهرتك مع الرفاق.

لولا أن الضحك ذاك اختلط فجأةً بالصراخ. هبط قلبي، فرجعت مسرعةً أركض فوق الدرج إلى أن عدت أسمع صوتك ملياً واضحًا يرنّ في أذني. قلتُ يلعبون. قلت تلعب مع أصحابك وتتمازحون بمزاح سمج ثقيل. حتى وصلتُ. كان الباب مشقوقًا على ممرّ طويل، وكان الممرّ الطويل يفضي إلى غرفة الحمّام.

ورأيتُك... كنتَ تضحك ! لماذا كنتَ تضحك يا أمّي، والرجل بين يديك عار يبكي ويتوسّل ويتوجّع ويصرخ ويستغيث بك أن ترحم أطفاله إنْ لم يكن في قلبك رحمة عليه؟ لماذا كنتَ تضحك يا أبرص، وأنت تقتلع أظافره بالكمّاشة وتكسر أسنانه بكرة الحديد، ثم تدلق عليه الماء وتكويه بقضيب ملتهب بالنار؟

نزلت جريًا. ولم أكن أبكي شفقةً على ضحيتك، بل خوفًا منك. من ذاك الوجه الذي رأيته لك وكان لمجرم، لطاغية، لوحش، لمسخ. وددتُ لو أقطع الثدي الذي أرضعك، أبتر الذراعين اللتين هدهدتاك، أقتلع البطن الذي حملك، وأجتزّ اللسان الذي دعا وصلّى لك كي ينمو عودك وتكبر وتصبح على ما أنت عليه من قسوة وطغيان.

رويتُ للصوت الذي خاطبني هذا كلّه، ثم طلبتُ منه أن يأخذني، فأموت وأستريح. أوتدري بماذا أجابني؟ صغيرك إلياس معذّب يا لوريس. هو الأبرص من استولى عليه.

وهكذا كان. قتلتُك يا أبرص كي أسترجع صغيري إلياس. أعددتُ لك العشاء، فأكلتَ وقمت إلى غرفتك كي تنام. انتظرتُ، حتى سمعت صوت شخيرك الخافت الرتيب. حملتُ قنينة الغاز وفتحتها، ثم أغلقتُ عليك الباب...

لكنك بقيتَ تجيء إليّ ليلاً، فتلومني وتعاتبني، ثم يتحوّل اللوم تعنيفًا والتعنيف تعذيبًا بالضرب وتهديدًا بالخنق، لأنك متّ ربما على غفلة منك. ها إني أفعل اليوم بدراية منك ؛ ها إني أعلمك بأني قد أغلقتُ كل النوافذ، وفتحت قنينة الغاز كي يأتيك الموتُ على مهل، كالنعاس.

حسنٌ أنك جئت إليّ الليلة، لأني كنت أنتظرك. هذه المرّة تحسّبتُ لك وكمنتُ وراء الباب. انتظرت وقلبي يطرق وأنا أتضرّع للربّ أن يلهمك الدخول...

ودخلْتَ!

ـــ ٢٢ ـــ

... وكان الغيم يقف متراكمًاحائرًا فوق تلك المدينة منذ أمد بعيد.

فسألت سحابة أختًا لها :

ألا ترين الأرض تتحرّك من تحتنا وتميد؟

فأجابت ثانية :

بلى! بل إنها حتى تهتزّ قوياً وتنبئ بزلزال عظيم.

وقالت ثالثة :

إذن نمضي. يكفينا ما رأيناه حتى الآن.

فتجمّعت السحب مسرعةً تستعد للرحيل. نظرت إلى الأسفل مودّعةً، ثم انفجرت بالبكاء.

ـــ تمّت ـــ

صدر للمؤلّفة :

ـ **المُحَوّل** ، رواية
دار مختارات، بيروت ١٩٨٦

ـ **حياة وآلام حمد ابن سيلانة** ، رواية
دار الآداب، بيروت ١٩٩٥

ـ **باص الأوادم** ، رواية
دار الآداب، بيروت ١٩٩٦

■ حازت على جائزة أفضل إبداع لبناني للعام ١٩٩٦
المنتدى الثقافي اللبناني، باريس ١٩٩٧

ـ La locataire du Pot de fer ، رواية
Éd. L'Harmattan، باريس ١٩٩٧.

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣
ص.ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت

مستوحش يكره البشر ولا يحبّ الاختلاط. ذئب لا يأمن إلاّ لذاته وإخوته من الذئاب. اختصاصي. محترف. قنّاص مبدع، كما كان الأبرص فنانًا بارعًا بأساليبه في التعذيب، وأنت في صنع الألغام. نوعيّات نادرة أصبحت اليوم إلى انقراض. آلهة، أو أنبياء، يقرّرون المصائر، مؤمنون بدعوتهم، ويعملون منفردين مرتفعين عن مصافّ الحثالة من البشر والعامّة من الرعاع.

أبو عبدو البغل
https://facebook.com/groups/abuab/